في السيرة والتاريخ ١

بين يدي الرسول الأعظم (ص)

القسم الثاني

محمد بحر العلوم

دار الزهراء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

بين يدي
الرسول الأعظم (ص)

في السيرة والتاريخ

١

بين يدي الرسول الأعظم (ص)

القسم الثاني

محمد بحر العلوم



دار الزهراء (ع)
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الثانية

١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً »

(القرآن الكريم)

نجومٌ لن تغيبُ

عبر السنين الطويلة المجهدة ، تزهر في الأفق أسماء لن تبلى على امتداد الدنيا ، وكلما هرمت الأيام ازدادت روعة ، وكلما غفت الليالي تأججت ثورة .

أسماء غنى لها التاريخ ، وغردت فيها الشفاه ، وشمخت بها الأفكار واحتضنتها القلوب .

ورغم الجدب المترنح على آفاقنا ، والجفاف الغافي على رمالنا ، والكلمة المتعسرة على شفاهنا ، والساعات المثقلة في أيامنا ، فان هذه الأسماء تلهب الأذهان احساساً ، وتملأ العيون زهواً ، وتنعش الأجواء شذى .

وإذا حسبنا الزمن فألف وأكثر من ألف ، وإذا استعرضنا الأشخاص فالاف ، وأكثر من آلاف ، ولكن هـــذه الأسماء الشامخة - رغم كل ذلك - أصبحت نجوماً لن تغيب مهما طال

الزمن ، وحزمة ضوء لن تموت مهما تعددت الأسماء .

واخترت منها بضعة أسماء صورتها في هذا الكتاب طبيعية ، خالية من الرتوش ، ولم تكن هذه الباقة الا مثـــلا للبطلات المسلمات ، توج الزمن بذكرهن ، وحفل التاريخ بسيرتهن .

ولقد مثلن بشرف واعتزاز موقف المرأة الرسالي في أهم فترة في بدء الاسلام ، واسهمن في تكوين المجتمع الانساني الذي تحمل رسول الانسانية مسؤولية خلقه ،فبقيت أسماؤهن بارزة في السيرة والتاريخ ، لن يجف ورقها ، ولم يصل اليها الظلام ، رغم هذه الجبال الشاهقة من الأيام .

وإذا كنا مخلصين – اليوم – في الدعوة لبناء مجتمع اسلامي ، شامخ ، متطور فعال – فالمرأة عنصر أساسي فيه ، ودعامته الثانية – فلا بد أن نعمل جادين على تعريف المرأة المسلمة أهمية دورها في بناء هـــذا المجتمع ، ونركز فيها الفتوة والتضحية والصفات الكريمة ،ونذكرها بخديجة وأمثال خديجة المثل الأعلى ، والقدوة الحسنة ، لصانعة المجتمع ، وخاصة الأمل .

وفي الختام:

أرجو أن أكون قد وفقت في عرض جانب آخر من السيرة النبوية من خلال شخصيات الاسلام الخالدة ، وبالأسلوب الذي

احسب أن القارىء الكريم يبقى على اتصال بها، ويتابع قراءتها.

ولي من سعة صدر «دار الزهراء» العامرة ما يساعدني على مواكبة المسيرة، والوصول إلى القسم الثالث والأخير

ومن الله سبحانه وحده التوفيق والسداد.

وإلى اللقاء ...

محمد آل علي بحر العلوم

١٧ ربيع الأول / ١٣٩٥ هـ

١٩٧٥/٤/١ م

خديجة بنت خويلد

وأطل المساء ، وأدى الناس صلاتهم في مسجد الرسول ، وذكرى خالدة تطوف في ارجائه ،وبعدها انتشروا فيه حلقات، يقطعون في مجالسهم وحشة الليل كعادتهم في كل مساء .. ولكن كل شيء من حولهم واجم ، وعلى المدينة سكون غريب، يثير الرعب ، وينشر الرهبة ، بحيث تبدو البيوت ، وكأنها تغط في سبات عميق .

ووصل الشيخ أبو معاذ إلى مجلسه ، يلم من حوله كل عشاق حديثه ، وهواة أخبار السلف .. ولبث الشيخ مطرقاً ، تمور في ذهنه أكثر من خاطره ، ويجمع شتات هذه الخواطر ، ليرصفها سلسلة فيها كل العظة والعبرة لمستمعيه ، وقلوبهم تخفق لبطولة الامجاد .

وتمر نسمة عليلة تنعش الشيخ ، فيرسل أصابعه لتلعب بكريمته التي جللها المشيب ، فأحالها إلى بياض ناقع

وافتتح حديثه بأسلوبه العذب قائلاً : وليكن حديث الليلة عن السيدة الطاهرة « خديجة أم المؤمنين » .

واشرأبت اليه الأعناق ، ومضت نحوه العيون ، كلهم في شوق ملح لسماع أخبارها ، وموقفها المشرف في صدر الاسلام..

وقال :

كانت ليلة من ليالي شتاء مكة الحلوة ، وقد سيطر الأرق على « خديجة بنت خويلد » وفكرت أن تقضي وقتها مع ابن عمها ورقة بن نوفل ، وهي تلجأ اليه كلما ضايقها الأرق ،وتأنس إلى حديثه كلما داخلها هم ، وتجد فيه الصدق والوفاء معها كلما ألح عليها تفكير .

وصفّقت إلى جـــاريتها أميمة ، فهرعت تهرول لسيدتها ووقفت أمامها :

لبيك يا مولاتي ..

أبعثي ميسرة إلى ورقة ليأتي حالا ..

السمع والطاعة يا سيدتي ..

وتذهب الجـارية إلى ميسرة ـ وهو من مواليها المقربين -- وتبلغه رغبة سيدتها ، فينهض الرجل إلى بيت ورقة ..

ويطرق ميسرة الباب ، ويطل من كوتها رجـــل أسود ، ويلمح منها ميسرة ، فيفتح له الباب ويسأله عن سبب مجيئه في

سكون هذا الليل ، فيقول له : حاجـــة لسيدتي عند ابن عمها تطلبه الساعة .

أنه في عزلته ، لم يقابل أحداً منذ أيام . دعني لحظة ، سوف أخبره عنك ويدخل بيتاً آخر ، ثم يخرج بعد قليل ، ويخبره بأن سيده في الأثر سيتوجه إلى دار خديجة ..

ولم يمر وقت طويل حتى وصل ورقة إلى دار بنت عمه .. الك البيت الذي يدل مظهره على ثراء صاحبته الواسع .

واستقبلت أميمة ورقة على عتبة الباب ، مرحبة به ، ثم أدخله على سيدتها .. وما ان لمحته يدخل خيمتها الموشاة ، حتى نهضت لاستقباله ، وأجلسته عندها خير مجلس ، وطلبت من جاريتها أن لا يدخل عليها أحد ..

وخلا الجو لها فالتفتت إلى ابن عمها ، وهي برمة متأثرة وقالت له : ان هؤلاء القوم يلحّون عليّ ، ويطرقون بابي ، وكلما أوغلت في الامتناع ازدادوا حرصاً .. لقد رفضت كل من يتقدم لخطبتي ، ولم ينفع هذا الرفض .. اليوم جـــاء أبو لهب يعرض عليّ مالاً كل ما أطلب، منه مهراً لزواجه ورفضت ، وقبله أبو سفيان ، وعمرو بن هشام ، وشيبة ، وغيرهم ، ما لهم يلحّون عليّ .. وخنقتها العبرة .

وهدّأ ورقة خاطرها ، ووعدها بأنه سيعمل جاهداً أن لا

يطرق بابها أحد بعد هذا .

وذهب الهزيع الثاني من الليل، فودعها وانصرف ، وخديجة تأمل من ابن عمها الوفاء والأمل .

وورقة كان يتعهد خديجة ، ويهتم لأمرها كثيراً ، حتى باتت تشعر بأهمية وجوده لديها أكثر من أي شخص من أقاربها .

ولم يطل اليوم الثاني عليها حتى وافاها أحد أقاربها ، وهو يعاتبها عتاباً مراً على ردها وجوه العرب ، وشخصيات قومها ..

وترد على قريبها بأن نفسها عازفة عن الزواج ، وقد كفاها من الزواج ما عانته في حياتها الزوجية السابقة .

لكن القريب المدفوع بالرجاء ، وغير الرجاء ، أصر على اقناعها بالاقدام على الزواج ، وان كبار العرب على استعداد لبذل الغالي والنفيس في سبيل رضاها .

وتتضايق خديجة من هذا الحديث ، ولم تر بدأ من التظاهر بالتفكير ، حتى يحسب القريب انها في تفكير جدي بهذا الأمر .. وانها بحاجه إلى أن يفرغ لها المجال لتقول كلمتها بهذا العدد .. وفي الصباح الجديد رباح - كما يقولون - وتركها لشأنها وخرج .

كانت خديجة امرأة حازمة من أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكل رجل من قومها كان يرجو خطبتها، ولكن كانت ترد هم واحداً تلو الآخر، بعد أن تزوجت من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وبعده تزوجت بأبي هالة هند بن زرارة التميمي، وخلفت منهما .

ثم انشغلت في تجارتها، فقد كان لديها المال الوفير، وكانت تستأجر الرجال، وتمنح لهم قدراً من مال ونفع، وترسلهم إلى الأمصار، وقد انشغلت بهذا عن الزواج .

وكان أبو طالب، شيخ الأباطح، أحد أولئك الذين عملوا في تجارة خديجة، وعرفت عندها بشهامته، ونزاهته، وأمانته . ولكن نظراً إلى كبر سنه وانشغاله بابن أخيه « الأمين » فقد انقطع عن العمل، ولم يخرج بتجارتها . ولم يهن ذلك عليها، فقد لمست في هذه الشخصية الفذة مزايا رفيعة قل أن تتوفر في شخصية من شخصيات مكة .

والحت الفاقة بآل أبي طالب، وأرهقتهم متاعب الزمن، اضطر أبو طالب أن يتفاهم مع ابن أخيه الأمين بهذا الأمر . وقر رأيهما أن يذهب ابو طالب إلى خديجة ويكلمها بأن تجهز قافلة لمحمد يخرج بها إلى الشام، عسى الله أن يفتح على يديه باباً للرزق .

ولم يكن محمد بالممتنع عن إجابة عمه العطوف، وهو عزيز

عليه ، فلعله يتمكن من مساعدته ، ويسد بعض ما ألمّ به من فاقه .

وذهب أبو طالب إليها فكلمها في مهمته ، ولم يكن حال الصادق الأمين يخفي على خديجة ، فقد عرفت عنه كل شيء ، فقالت لأبي طالب : لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا ، فكيف وقد سألته لحبيب قريب .

وعاد الشيخ لابن أخيه مشرق الوجه ، ونقل إليه قولها الرقيق .

وهيأت خديجة لمحمد قافلة ، وجعلت في خدمته عبدها « ميسرة » يدير شؤونه ، ويهيىء طلباته .

وميسرة عبد خديجة المقرّب ، تعتمد عليه في شؤونها الخاصة ، وقد فضلت أن يكون في خدمة محمد لأمرين : أولاً — حرصاً على راحة محمد ، وثانياً — ليعرف من شأنه ما استطاع ، فإنها تهتم لهذا الأمر ، وتتشوق إليه .

وتتابعت الأيام ، وتصل القافلة إلى الشام ، وتحصد من جني الربح ما وفر لها أكثر مما كانت تتوقع في مسيرتها ، ولم يكن كل هذا في نظر ميسرة — عين خديجة — إنما بهره قائد القافلة محمد اليتيم مثل الإنسانية بخلقه الرفيع ، وإنسانيته العالية ، وصفاته الحميدة ، وشمائله الكريمة ، مما جعله مسحوراً معجباً مبهوراً

بصفاته متطوعاً لاحترامه ، مؤمنـــاً بمثله .. وكان ميسره يتمنى ، ان يطير لسيدته ، فيتحدث لهـــا عن هذه الشخصية الفذة الفريدة ، وعما لقي من كرامـــات له تنبيء ان له شأناً كبيراً .

وعادت القافلة إلى مكة ، تسبقها أخبار عودتها ، فيخفق قلب المرأة الطاهرة حثيثة ــ كما كانوا يسمونها في الجاهلية ــ ولم تكن فرحتها الكبيرة بعودة قافلتها ، وربح تجارتها بأكثر من عودة محمد سالماً غانماً ، فقد نمت في أعماقها إيماناً لهذه الشخصية ، وشعوراً خارقاً نحوها قد يتعدى حدود الوصف .

دخلت إلى « ميسرة » أمينها البار ، وغلامها الذي ما خانها منذ نعومة أظفارة ، وحدثها عن فتى الهاشميين «الصادق الأمين» وعما صادفه في سفرته منه ، مما زادها ايماناً في حبه ، وتفانياً في الوفاء له

وخديجة المرأة المحتشمة الطاهرة ، لا يليق بها أن تبدو عليها آثار الوجد لكن هذا لم يمنع ان تكتم بين أضلاعها حباً وإخلاصاً لمحمد قد يصل إلى درجة التفاني .

وذات ليلة دخلت على خديجة اختها فحدثتها بكل ما في قلبها نحو فتى عبد المطلب ، وسيد قريش ، والصادق الأمين ، الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، وكان يحزّ في نفسها فارق السن فهي قد بلغت الأربعين من سنيها ومع ذلك

كان يتهافت عليها الخطاب . فهل لمحمد نفس فيها وهي بهـذا العمر ؟ اما المال فلم يكن في نظره بشيء مهم .

غير أن ايمان هذه المرأة الطاهرة، دفع بها إلى بذل المساعي لترتبط بمحمد ، ولتكن له عضداً صادقاً في حياته .

وما المانع من أن تكون هي الطالبة يد هذا الإنسان، وله من الشرف ما لا يصل إليه أحد . وإن كان هذا ما يخالف العرف الجاري . ولكن الاعراف من أجـــل فتى الهاشميين تهون ، وانتهى إليه رأي الأختين ان يفاتح بذلك عمه أبي طالب ، وهما يعلمان جيداً أن لأبي طالب مكانة في نفس محمد لا يوازنها شيء .

ووصلت الأخت إلى شيخ بـــني هاشم وزعيمها ، وحدثته بسرّ أختها ، واستعدادها لبذل كل ما يحتاج هـــذا الأمر من مال . وصادف هـذا الطلب في نفس أبي طالب قبولا ، فإن المقومات التي تتصف بها خديجة تعدمها أغلب نساء قريش، وهي لائقة لابن أخيه رغم تفاوت السن .

وتحدث أبو طالب مع ابن أخيه في أمر خديجة ، ولم يكن محمد بعازف عن هـــذا الأمر ، خاصة وان لخديجة في نفسه مكانة طيبة .

وجمع أبو طالب اخوته ، والكبار من أهل بيته ، وشخصيات

قبيلته وذهب بهم إلى دار خديجـــة بنت خويلد ، وقد ضمت الأكارم من عشيرتها ، والشيوخ من أهلها .. وما أن استقر ببني هاشم المقام ، حتى قام أبو طالب خطيباً قائلاً :

« الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً ، وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس ..

ثم ان محمد بن عبدالله أخي ، من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً، وفضلاً ، وحزماً ، وعقلاً ، ومجداً،ونبلاً.. وإن كان في المال قلّ ،فإنما المال ظل زائل،وعارية مسترجعة.. وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلي ، وله والله خطب جليل ، ونبأ شايع » .

ولما أتم أبو طالب حديثه ، وقف ورقة بن نوفل يرد عليه قائلاً :

الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت .. فنحن سادات العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم .. وقد رغبنا في الاتصال بحبكم وشرفكم ، فاشهدوا علينا معاشر قريش بأننا قد زوجنا خديجة لمحمد ..

وهكذا تم الارتباط بين محمد الانسان الذي لا يضاهيه إنسان وخديجة التي كان لها الشرف العظيم بهذا الزواج .

ولم يكن هذا الأمر بالسهل اليسير على العرب ، وأثرياء مكة ، فقد توافدوا على باب خديجة يطلبون يدها فرفضتهم ، ولم تعبأ بمالهم ، وزعامتهم .. ان المال لديها وفير ، ان الجاه لا يصعد بها مقام ، فلها من الجاه ما يكفيها ..

وينتفض عمرو بن هشام ، ويغص أبو سفيان ، ويغمى على عقبة بن معيط ويصاب الكثير من أمثال هؤلاء بذهول غريب .. ويقول قائلهم - والحسد يأكل عيونهم وقلوبهم ، وضميرهم - . ما هذا إلا سحر .. مسكينة خديجة ، فقد سحرها اليتيم ، فشغفت به .

ويسكت الشيخ أبو معاذ قليلا ، وعيناه مزروعتان في الأرض ثم يلتفت إلى أصحابه قائلا :

ان هؤلاء ممن تهافتوا على خطبة خديجة لم يدفعهم في الواقع حبهم لهذه المرأة بقدر ما كان همهم مالها ، وبعد أن تزوجت بمحمد بهذه الرغبة الملحة وما أن أعلنته على رؤوس الاشهاد بأن جميع ما تملك من مال وعبيد وغير ذلك وضعته تحت تصرف محمد ورغبته اجلالاً واعظاماً له .. دفعهم الحسد والبغض إلى إظهار جزعهم وتأثرهم . وهم كانوا على استعداد لاعطاء خديجة

ما تريد ، ولا ينال منها محمد ما نال ..

هكذا كان عداء قريش للرسول الأمين ، وبهذا اللون القاتم كان كرههم له ، وحسدهم منه .

وتعاقبت الأعوام ، والسيدة الطاهرة في بيت الرسالة ، أكثر من زوجة . فقد تناست حياة الترف والعظمة ، تلك التي كانت الجواري يتسابقن إلى خدمتها ، والغلمان يقفون ببابها . أما الآن فبالعكس . لقد قاطعنها مقاطعة تامة ، وأصبحت جليسة الدار لا يدخل عليها إلا محمد ، وقد تركت تلك الحياة الناعمة المرفهة .. وهي مع هذا كله سعيدة بهذه الدنيا الجديدة .. أبداً ليست الحياة القديمة التي عاشتها بأجمل من حياتها الحديثة في ظل الرسول الأعظم ، وحياته القريبة من الزهد ..

ثم بدأت الدعوة ..

ونزل الوحي على رسول الله . « بلغ عشيرتك الأقربين » وتهلل وجه المرأة الطاهرة ايماناً وبشراً ، بماذا يدعوها الرسول إلى الشرف والخير ، وزوجها الصادق الأمين . ومدت يدها الكريمة تبايع بها النبي في دينه مخلصة وفية لما يقول : «وما ينطق عن الهوى ، ان هو إلا وحي يوحى » ولم يسبقها للإسلام أحد غير علي بن أبي طالب (ع) ..

ويأتي يوم والقوم حول البيت العتيق حلقات ،

وقـــد ارتفعت الشمس ، فإذا برجل قد دنا من الكعبة ورفع رأسه إلى السماء فنظر ، ثم استقبل القبلة ، وجاء غلام يافع فقام عن يمينه ، ثم لم تمر لحظة حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما ، ثم ركع الشاب ، فركع الغلام ، وركعت المرأة ، ثم رفع الشاب رأسه ، ورفع الغلام رأسه ، ورفعت المرأة رأسها ، ثم خروا ساجدين . فسأل البعض من العباس بن عبد المطلب عنهم :

يا أبا عبدالله إني أرى أمراً عظيماً ، فقال العباس للسائل . أمر عظيم ورب هذا البيت . هل تدري من هذا الغلام ؟ قال : لا أدري !! قال : هذا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ابن أخي : وهذا الغلام علي بن أبي طالب ابن أخي أيضاً ، وهذه المرأة ، خديجة بنت خويلد زوجة محمد ابن أخي هذا : وإن ابن أخي هــذا الذي ترى ، حدثنا ان ربه رب السموات والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه ... لا والله ما علمت على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة

استجابت خديجة لدعوة الرسول ، حين دعاها للتصديق برسالته ، ولم يمر على نزول الوحي عليــه إلا يوم واحد ، فقد أعلنت الدعوة يوم الاثنين وآمنت خديجة يوم الثلاثاء

أيّ ايمان هـــذا يدفع بهذه المرأة الطاهرة إلى أن تنسى حياتها كلها ، وتنصهر في هذه الدعوة السماوية التي انطلقت على الدنيا بواسطة زوجها الأمين بهذا الشكل العجيب .

وكلما توغلت الأيام في محاربة الدعوة الجديدة كانت المرأة الطاهرة تزداد تعلقاً بها، وتفانياً فيها، ووثوقاً بزوجها، ومواساة له . . فالحياة مع محمد عبادة وخير وبركة . ولم يكن كل هذا الاندفاع منها في توطيد دعائم العقيدة حباً منها لزوجها، أو تأييداً لدعوته . لا . ثم لا . .

إن خديجة استطاعت أن تفهم من زوجها الأمين أبعاد الدعوة، وحقيقتها . ثم تبنتها مع الرسول عوناً فكانت خير عون، وساعداً فكانت نعم الساعد .

وحلت محنة الشعب . .

فقد ضاقت قريش بدعوة محمد، ولم ينفع معه كل أسلوب في التخلي عن رسالته، وقال يوماً لعمه أبي طالب، بعد أن ألحوا عليه بأن يتحدث مع ابن أخيه في أن يكف عن تسفيه آلهتهم : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر لما تركته » .

ويأست قريش من أبي طالب، فلم ينفع معه كل أسلوب في تسليم ابن أخيه لهم . وعند ذاك اجتمع زعماء قريش في « دار الندوة » وقرروا مقاطعة بني هاشم، وكتبوا بذلك صحيفة، وعلقوها بالكعبة .

واضطر بنو هاشم وأتباع محمد إلى الانعزال عن المجتمع المكي

الثائر على محمد ودعوته ، واتخذوا في شعب من شعاب الجبل خارج مكة مكاناً لهم ، وطال فيه المقام حتى مرت عليهم ثلاث سنوات متتابعة ، يعانون فيها الحرمان والجوع .

ويدور الوليد بن المغيرة في أسواق مكة منادياً كل يوم : «ايما رجل من أصحاب محمد وآله وجدتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه ، ولا تبيعوه ومن ساعدهم فدمه مباح . »

ويقف أبو جهل على مقربة من الشعب يترصد الطريق كي لا يصل لهم زاد فيموتوا جوعاً .

ويتخذ أبو سفيان صخر بن حرب الحاقد الناقم من الكعبة مقراً له يخطط لتذويب هذه الجموع المؤمنة ، فيندفع الوليد لمثل هذا النداء ، ويحمل عمرو بن هشام على العنف ضدهم .. حقد وقد بزّ كل الأحقاد ، وانه قديم .

يقول أبو سفيان مرة : ما لنا ولبني هاشم نحن من سلالة واحدة ولكن ظفروا بالشرف والعزّ وحدهم ، وكلما نازعناهم فيه ، كانوا هم السباقون إليه ، وتخلفنا نحن . وليس لنا إلا أن نفني هذا البيت فيطفى حقدنا عليه .

وكان لخديجة دور مشرف في هذا الحصار ، وقد بذلت جميع ما تملك من مال لترفد من في الشعب . وكان حكيم بن حزام بن خويلد يحمل إليهم القمح باسم عمته .

مرت ثلاث سنوات على المسلمين في هذا الحصار القاسي عانوا فيها الأمرين ، ولولا أموال خديجة لمات الجميع جوعاً ، فقد بذلت بيد سخية ونفس طيبة ،كل أموالها مواساة لدعوة الرسول حتي فرج الله عليهم .

وكان لهذه المواساة أثرها الكبير في نفس النبي الكريم . فقد كان يتحدث عن فضائلها بعد وفاتها كلما تواتيه المناسبة ، فأدركت مرة الغيرة عائشة بنت أبي بكر فقالت : هل كانت إلا عجوزاً من عجائز بني أسد ، وقد أبدلك الله بخير منها .. فغضب رسول الله ، حتى اهتز ، مقدم شعره من الغضب ثم قال :

« لا والله ما أبدلني الله خيراً منها : آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدّقتني اذ كذّبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ، وولدت إذ عقمتم » .

تقول عائشة : فما زلت أتقرب إلى رسول الله (ص) بذكرها .

كانت خديجة للنبي وزيرة صدق على الاسلام ، فقد قام الاسلام على دعامتين : مال خديجة ، وسيف علي .. ولهذا لم تكن المرأة العادية في حياة الرسول الأعظم . فأن الكفاح الرائع الذي سجلته هذه المرأة الطاهرة حري بصاحبته أن ينزلها المنزلة الفضلى من نفس الرسول الكريم .

وقد كانت فوق هذا كله ملاك الرحمة يرى النبي في عينيها ،

وعلى ثغرها من معاني الإيمان به ما يزيده ايماناً بنفسه .

وقبل الهجرة بثلاث سنين ، وفي خضم الأحداث ، وتفاقم الأرزاء على النبي من قريش وغيرها ، ينطفيء اللهب الرائع الذي كان لمحمد في مسارب دعوته عوناً في تلمس الطريق ..

وليس من اليسير أن يتلقى الرسول الكريم هذا البناء المفجع ، وهو يفقد بفقدها انسانة مثّلت الوفاء بأحلى معانيه ، وجسّدت الصدق بكل جوانبه .. ولم تكن كلمتها الأخيرة ، وهي على فراش الموت بأقل وقعاً من كل ماجسدته له من متاعب في سبيله ، إذ تقول له ، وظلال الموت يرفرف عليها :

« يا رسول الله .. إني قاصرة في حقك ، فاعفني . ولم أكن قد أديت حقك ، وإن كان لي شيء أطلبه منك فهو رضاك » .

وتلجلجت الكلمات في الثغر الطاهر . ولفظت أنفاسها النقية بخشوع وإيمان .. فرحم الله خديجة المثل الأعلى للمرأة المسلمة المناضلة من أجل عقيدتها .. ورسالتها .

صفية بنت عبد المطلب

وعاد جلاس الشيخ أبو معاذ إلى مجلسهم ، والليل قد نشر ابراده الرهيبة يبعث في النفوس وحشة ، ولولا شوقهم لحديث الأيام الماضية ، وسيرة السلف الصالح لما جمع هذه الشلة ليل .

وطافت الذكريات بحدث السمار ، وهـــو يجمع شتات أفكاره ، ويلملم من هنا وهناك ما يقدمه لسامعيه متعة ليلة من ليالي الشتاء القاسية .

وتكلم : وليكون حديثنا الليلة عن «صفية بنت عبد المطلب» .

ولم يكن هذا الإسم بعيداً عن أذهان القوم ، انها بنت سيد الهاشميين ، وكبير قريش ، وسادن الكعبة ، وساقي الحجيج . وهي شقيقة حمزة بن عبد المطلب ، اسد الله ورسوله وأمها هالة بنت وهب خالة رسول الله من سيدات بني زهرة .

ولقد سارت إليها أنباء الدعوة ، كما يزحف العطر الزكي ، وسمعت بعض أقوامها يتحدثون ان ابن أخيها محمد يجتمع بصفوة من الناس يقرأ عليهم من آيات الله ما تيسر ، ويبدأ مجمعهم يتوسع يوماً بعد يوم ، وأصبح معرضاً لمخاطر قريش ، لكن أعمامه عبد مناف يدفع عنه الأذى ما استطاع .

وتدرجت في هذه الأحداث مع الأيام ، والليالي حبالى فكل فترة والأمور تبدو جديدة ، ودعوة ابن أخيها لن تتغير ، فهي تصعد كل يوم ، ويزداد سعير قريش تتربص به الدوائر ، فقد فشلت المحاولات مع أبي طالب في ايقاف عند ابن أخيه ، لكن الرجل الذي أخذ على عاتقه الوقوف إلى جانبه مهما كلفه الأمر لا يتزعزع أبدا رغم تلبد الاجواء ، وضغط قريش .

وتهرع إلى شقيقها حمزة تسائله عن دعوة الصادق الأمين ، فيذكر لها ما يجعلها شغوفة بالتعرف على أخبارها ، ويقرأ عليها من آيات قرآنه ما يبهرها ويعجبها .

وأنذر عشيرتك الأقربين .. هكذا صدر الأمر لمحمد من السماء ، ولبي من لبى وتعنت من تعنت من بني هاشم ، وصفية بنت عبد المطلب تراقب المسيرة ، وهي تزداد تعلقا بها ، ولهفة لها .

ومرة يعود حمزة إلى بيته ، وهو أكثر أبناء عبد المطلب رقة ، وكان في الصيد ، ويبدو عليه الانفعال فتتصدى له أخته مستفسرة عما ألم به ، ولكن فتى عبد المطلب لم يتمكن من الكلام ، وتنفطر قلب الأخت لمنظره ، وهي التي تحبه وتصفيه من الود أعذبه وأنداه ، ومن العاطفة خير ما تضمره أخت لأخيها ، وبكل جزع تقول له :

ماذا بك يا أبا عمارة ؟

وتنهد الفتى ، وشد على كتفها ، وأخذ يخبرها بما جرى : لقد تصدى أبو جهل لابن أخيـة محمد يشتمه ، ويجرحه بقارص الكلام . . ورسول الله لم يرد عليه بشيء وأخبر حمزه وهو عائد من الصيد بموقف الجاهلي الحاقد من ابن أخيه ، فبادر اليه وهو بين آ له وأقوامه في فناء البيت،فشجّ رأسه بقوسه ، وكاد يقتله لولا تدخل بعض الجالسين . .

وكانت صفية تنصت لهذا النبأ مذعورة ، فهي تحب أخاها حمزة إلى حد لا يوصف ، وتخشى أن يصيبه سوء من بني مخزوم على أثر هذه الحادثة ولا ترضى لمحمد مكروهاً ، ولا لدعوته تخاذلاً ، وهي كلما التقت بأخيها عبد مناف (أبو طالب)وتسمع منه أخبار محمد تتصعد ثقـة ، وتزداد اطمئناناً . وهي كلما استقبلت أخاها حمزة ، وحدثها عن دعوة محمد تلألأ قلبها ايماناً ، وهي كلما لمحت ابن أخيها « عليا » وهو ظل لابن عمه ، وعمره لم يتجاوز ريعان الشباب ازدهر وجهها سماحة وبهجة . فمحمد لم يكن في نظرها ذلك الانسان العادي،أو القريب الذي يثير عاطفتها . . شيء أكثر من هذا كله ،وأضخم من كل ذلك. ولعله يتجسد عن قريب في ايمانها الكبير بالدعوة الاسلامية .

وأعلنت صفية اسلامها في خضم الأحداث المحيطة بالدعوة،

وقريش تلتهب سعيراً يوماً على يوم، لن يهدء لها حقد، ولن يخف لها غيظ . دعوة فتى عبد المطلب تأخذ بالانتشار، ويلتف حولها من أبناء القبائل والمستضعفين ما دعى بأبي سفيان واعوانه أن يعملوا جادين لوضع حد لمحمد، وقد فشلت كل المحاولات، ولم يبق أمامهم إلا طريق واحد قرّ عليه رأيهم، وانتهى اليه تصميمهم، وهو اغتيال محمد، وبه تجتث الدعوة من أصولها .

وتسرب النبأ لآل عبد المطلب، ولم يكن بد من تفادي الأمر، ولكن الأفكار لم تصل إلى رأي، وفي نفس رسول الله شيء قد كتمه، ولم يخبر به أي أحد من أصحابه .

وتدخل صفية على أخيها حمزة، وقد بان عليها الجزع، ان قريشاً تجتمع اليوم على أحب الناس لها لتقتله، وتقطع جذور دعوته .. يا أبا عمارة ماذا انتهى اليه رأي رسول الله اني أخشى عليه كيد الطواغيت من قريش .. ولم يجبها، انه كذلك طاف به حزن، وشتت فكره أمر، ولم يعرف شيئا عما قرره الرسول .

وسجى الليل، وهدء الأفق، ولم يبق إلا السامرون يقطعون أوصال الليل بالسمر والحديث، وفي دار الندوة يجتمع البعض ممن اتعبهم أمر محمد، وأرهقتهم دعوته، أنهم ينتظرون منتصف الليل ليهجموا على محمد في داره ويقتلوه، وعند ذاك يهدء

كل شيء .

ورسول الله في تلك الليلة لم يبدو عليه شيء جديد ، وان كان قد صمم على أمر ، وانفض من حوله أصحابه وآله ، ولم يبق معه إلا علي .. وعلي لم يفارقه حتى يوصله إلى بيته ، ولم يأذن له الرسول ، فدخل معه الدار ،ولم يكن أحد غيرهما فيه ، فأخبره بما عزم عليه .. انه يأمره يتوسد فراشه ، ويقضي ليلة هنا ، فهو قد صمم على الهجرة إلى المدينة .. ان الله سبحانه قد أمر أن يترك مكة حماية على نفسه،وأبو طالب قد سكن الثرى ، فاشتد سعير الجاهلين ، انهم اتفقوا على اغتياله ، وعيونهم ترصده .. ولا بد من انسان يضطجع بمكان محمد ليطمئن المتآمرون بأنه في بيته ، وليس غير علي أهلا بهذا الفداء ..

وقبل علي المهمة ، وهو سعيد بها ، وان عز عليه أن يفارق رسول الله مكة ، ولم يرهبه أمر قريش بقدر ما أثار في نفسه خوف أن يقع محمد بيد أعدائه ..

وأصبح الصباح ، وعرفت قريش أن مخططها قد فشل ، ومحمد قد ترك مكة ، ولم يتمكن الطلب من العثور عليه ، وهو متجه إلى المدينة . وعلي يرد الودائع على أصحابها ، ويجمع نساء بني هاشم ليسافر بهن هاجراً مسقط رأسه .

ولم يكن بالسهل اليسير على الهاشميات أن يتركن كل شيء

ويهاجرن مع رسول الله ، لكن الايمان الذي نور قلوبهن كان أكبر من كل شيء ، فقد كانت صفية بنت عبد المطلب، وفاطمة بنت أسد ، وفاطمة بنت محمد في مقدمة الركب .. الركب الهاشمي الذي قاده علي بن أبي طالب ، وطاش صواب قريش، فقد فلت بالأمس منهم محمد ، وهاجر إلى المدينة ،وسلم من حقد سيوفهم ، وقالوا ستبقى النسوة رهائن عندنا ، وبهذا نضمن سكوت فتى عبد المطلب .

ولكن شبل ابن أبي طالب قاد الركب بوضح النهار ، لم يقف بوجهه تهديد طواغيت قريش،وسلبيات أبي سفيان وأبي جهل ، فقد تشابكت قريش معه في أوائل الطريق ، وحاولت منعه من السفر ، ولكن البطل رد المحاولات خائبة ، وعادت قريش فاشلة ، واستمر علي في ركبه حتى دخل المدينة .

وعاشت صفية في المدينة ،وهي تؤدي رسالتها المقدسة داعية الله ومجـ ـدة عن النبي ، وصحابية مؤمـنة ، وسيدة بيت . والرسول الأعظم يعطف عليها ، ويهتم لأمرها ، حتى نقل انه كان يطعمها بنفسه .

وكانت بدر .. أول معركة دارت بين الحق والباطل ، بين المسلمين والمشركين وصفية عرفت بقوة قلبها وجرأتها،ولا غرابة ان كانت كذلك ، فهي من بيت البطولةوشقيقها حمزة معروف بشجاعته ، حتى لقب بأسد الله ، دلالة على بطولته وقوته وكانت

تدفع بأهل بيتها إلى الالتفاف حول الرسول الأعظم ، ليكونوا وقود حرب .

ولقد نقل عنها - مستدلين على شجاعتها - بأن رسول الله (ص) كان إذا خرج لقتال عدوه من المدينة رفع أزواجه ونساءه في حصن لحسان بن ثابت - شاعر النبي المشهور - لأنه كان من الحصون المنيعة في المدينة .. وفي غزوة أحد ، وقد تجمعت النسوة في هذا الحصن ، وكان حسان قد تخلف عن الحرب ، وقد عرف بجبنه . فجاء يهودي يتجسس الأخبار ، والتصق بالحصن ، ولمحته صفية ، وعرفت خبره ، فطلبت من حسان أن ينزل اليه ويقتله ، ولم يستجب حسان للطلب ، ولم يلق الأمر هوى في نفسه. فما كان منها إلا أن أخذت عموداً ونزلت اليه ،وخاتلته بعد أن فتحت الباب ،وحملت عليه وضربته بالعمود فقتلته ..

هكذا تحدثوا عن بطولة صفية ..

ولا عجب ان كانت ابنة عبد المطلب بدافع من عقيدتها المرأة البطلة التي تدفع المسلمين للجهاد بين يدي رسول الله ،وهي تملك هذه القوة .

وكانت غزوة أحد ، وهي في بداية الأمر في حصن حسان، ولم تخرج،لكن ما ان وصلت أخبار انكسار المسلمين أمام قوة المشركين ، بعد أن لعبت بهم أطماعهم ثارت صفية ، وتركت

الحصن ، وحملت رمحاً وهي تهرول إلى أحـد ، وتضرب به وجوه الناس ، وتقول : شاهت الوجوه ذلاً ، انهزمتم عن رسول الله ، وتركتموه وحيداً . ولمحها النبي ، ورق لها ، فقد كانت تندفع إلى الميدان ، وعيناها شاخصة إلى محمد . موجه من الحماس ، وعاصفة من البطوله تزحف ، وبيدها رمحها ، وهي لا تبالي بالموت . فالبطولة من صفات هـــذا البيت ، وشقيقها حمزة أسد الله ورسوله ، وابن أخيها علي بن أبي طالب ، البطلان اللذان لا يقف في وجهها الأبطال ، والرجلان اللذان لا يصمد أمامها الرجال .

ورق لها النبي ، وخشي عليها من سيوف الحاقدين ، فصاح بولدها الزبير أن يلتفت إلى أمه ، ويصدها عن دخول الساحة .

ووضعت الحرب أو زارها ، وبلغها نبأ مقتل أخيها حمزة .. وحمزة في نفسها لا يضاها ، وصممت على أن تصل اليه لتلقى عليه نظرة الوداع ، وقد حاول المسلمون منعها من الوصول إلى جسد أخيها الموزع الأوصال ، فقد غلى الحقد الأمــوي إلا أن يمثل بهذا البطل أشنع تمثيل . وعزّ على رسول الله أن تصل صفية إلى جسد عمه وتنظره بهذه الحـــالة ، ولكن البطلة المسلمة ، وقفت أمام المانعين تقول لهم بكل ثبات وصبر : ولِمَ امنع من الوصول إلى جسد أخي ، وكل ما حدث له هو في سبيل الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك لا صبرن ، واحتسبن

ان شاء الله .

وأخبر الرسول بمقالة عمته فسمح لها ، ووقفت على جسد أخيها المقطع المشوه بمدية هند زوجه أبي سفيان، فرمقت السماء بطرفها ، واستغفرت الله .

وكانت قد حملت معها ثوبين لتكفن حمزة بهما ، لكنها لاحظت إلى جانب جسد أخيها رجلاً من الأنصار ، قد أكلته السيوف، ولم يهن عليها أن تكفن أخيها بثوبين وتترك الأنصاري، فاختارت لحمزة أوسعهما ، لأنه كان مديد القامة، وخصت الثاني للانصاري ليكفن به

ولم يكن هذا الايثار من صفية، وفي مثل هذا الموقف نتيجة عاطفة أو تعصب . لا ابداً ، انما هو خاصة من خصائص هذا البيت العريق بالشهامة والفتوة والايثار حـــتى في أحلك الساعات .

رحم الله صفية بنت عبد المطلب ، فقد كانت مثلا أعلى في ايمانها وصبرها !!!

أُمّ سَلَمَة

وفي هذه الليلة تحدث الشيخ أبو معاذ :

وبزغت النجوم ، وانتشر الظلام ، وبدت الوحشة تغطي مكة وشعابها وتحلق السامرون حول البيت العتيق ، ولم يكن حديث لهم الا حديث فتى عبد المطلب ، ودعوته الجـــديدة ، وتجمع المؤمنون في دار الأرقم .

وكانت حلقة من تلكم الحلقات تغصى بآهة حزن ، ويرتسم على ملامح جلاسها شيء من الضيق والجزع . حلقة تضم أقطاب المعارضة لهذه الدعوة البناءة ، فيها أبو سفيان ، وأبو جهل ، وفيها شيبة وعتبة ، وفيها غير هؤلاء ممن فزعوا من هذه الدعوة ، فأخذوا يخططون للانتقام منها ، وبكل الوسائل وشتى السبل .

وضاقت الدنيا بهذه الطفحة ، فالدعوة تنساب إلى النفوس المؤمنة فتجرها إلى محمد يتيم عبد المطلب ، ولم يقف العذاب في وجه هذه المسيرة . لقد جزعت قريش من ممـــارسة كل أنواع الضغوط على هذه الصفوة ، ولكنها لا تبالي ، فكل يوم مؤمن جديد يصل اسمه إلى اسماعهـم ، فيرهقهم ، ويشمل غضبهم ،

ولكن دون جدوى حتى النساء اثرت فيهن الدعوة إلى درجه لم يؤثر فيهن ظلم أبي جهل ، فقد ماتت « أم عمّار » تحت سياط جلاوزة قريش ، فلم يخفف من عزمهن شيئاً . ان المسيرة نحو مسلة النور مستمرة ، تتضخم كل يوم ، وتزداد بطـــولة على اصداء الأحداث .

ولكن القائد الملهم رسول الله (ص) طلب من أصحابه أن يتركوا مكة ، ويركنوا إلى بلد يتوفر فيه لهم الأمان من شر الأعداء ، وقسر الجبابرة ، وحقد الموتورين ، وليس غير الحبشه مكان يتوفر فيه ما يريده رسول الله لأصحابه .. فعليها ملك ، يحفظ حرمة الضيف ، ويأمن عنده الغريب ، ويأخذ بحـــق المظلوم .. انه النجاشي ، وفي جواره لا تمتد يد قريش القاسية لأصحابه .

ويدور همس في ظلام ليلة رهيبة بين المسلمين : ان رسول الله (ص) يأمرنا أن نترك مكة إلى الحبشة ، لنكون في مجنب من ظلم طغمة قريش وحليفاتها .

وعاد الأصحاب إلى بيوتهم يحملون هذا النبأ الى أزواجهم سواء فيه الفرحة أم فيه الغضب ..

وكان من بين هذه الصفوة عبد الله بن عبد الأسد من بني مخزوم ، فقد آمن بالدعوة ، ومن السباقين اليها ، دعاه داعي

الحق فاستجاب اليه ، وفتح قلبه وأنار بصره ، وأخلص لمحمد ودعوته ، صفى نفساً من شوائب الجاهلية .

وكانت زوجته هند بنت أبي أمية بن المغيرة سيدة بني مخزوم ، وتعرف في مجتمعها بـ « أم سلمة » وأبوها يلقب « بزاد الراكب » لأنه كان أحد أجواد العرب ، فاذا سافر معه أحد لا يتركه يتحمل أمور زاده ، بل كان يكفي رفقته من الزاد .

وأسلمت أم سلمة ، وانداحت للأيمان كما ينداح النور في الفجر السخي وكانت تستقبل زوجها كلما عاد من صحبة رسول الله ، فيعيد عليها ما سمعه فتعيش بالذكريات العذبة طيلة ذلك اليوم .

وفي تلك الليله ، وكعادتها تبقى العين المؤمنة ساهرة بانتظار عودة ، الزوج المؤمن ، وقبل أن ينتصف الليل ، دب عبد الله إلى بيته ، وكانت زوجته ترقب عودته . وببسمة ملؤها العطف تنفرج الشفتان لتسائل الزوج العائد عن اجتماع هذه الليلة ؟ فقد سبق لها النبأ ان رسول الله (ص) طلب كل أصحابه لأمر هام، فما هو ذاك يا ترى ؟ ..

وقال عبد الله : ان رسول الله أمرنا أن نهاجر إلى الحبشة ، لنتقي شر الطواغيت من قريش ، فقد قست قلوبهم ، وتفاقم أذاهم . ولا بد لنا أن نتجنبهم .

وتلاشت البسمة من ثغر الزوجة الصحابية، وانتشرت صفرة على تلك الملامح الطيبة ، لقد هزها النبأ ، ولكن صبرها أكبر من هلعها ، وايمانها أعمــق من عاطفتها . واستفسرت منه بكل هدوء :

وما انتهيت اليه ، يا ابن العم ؟

ويرد عليها بعزم وثبات : ولن أخالف أمر رسول الله ..

وترمقه بنظرة أكبار وتنفر الكلمات من شفتيها ، وعيناها مشدودتان إلى السماء .. ارجو ان نجزى بذلك خيراً ..

وفي وسط الظلام الدامس الذي يعم البيت ، تطوف فـيه سحابة وجوم .. فليس من السهل على المرء ان يترك وطـنه ، ومسقط رأسه ، وأهله وذويه ، ويرحل إلي بلاد الغربة .. بلاد لا يعرف عن أهلها شيئاً ، ولم يألف طباعها ولكن للضرورات أحكام ..

وطال الصمت بين الزوجين ، فعبد الله يرغب أن يقف على رأي زوجته في السفر ، هل تصحبه، أم تفضل البقاء في مضارب بيتها ؟ ، وفي زحم الظلام يتحسس عبد الله لمعان الدموع المنسابة من عين زوجته دون أن تحدث صوتاً .

وبصوت هــــادىء اختلط برنين الأسى واللوعة ترد أم سلمة عليه :

وهل أنا تاركتك يا ابن العـــم .. كل شيء يهون في سبيل العقيدة .. والله من وراء القصد ..

بهذه الكلمات المضمخة بالايمان يختم الليل عمره ، وتنطلق تباشير الفجر وترف ترنيمة التوحيد إلى اسماع المؤمنين .. الله أكبر .. أشهد أن لا إله إلا الله .. وان محمداً عبده ورسوله..

وفي اخريات يوم قاتم شحبت فيه شمس الجزيرة ، وطافت على بيوت مكة وحشة لم تعرفها هذه الأرض من قبل .. انها ساعة الرحيل ، ويتسلل المسلمون من بيوتهم إلى مكان تجمعهم خارج مكة .. حيث السفر الطويل ، إلى غربة تأكل خضرة الحياة ، وتجفف ندى الضلوع ..

ويقف الرسول الأعظم وسط هذا الحشد الصاعد بايمانه إلى الله ، وإلى جنبه ابن عمه علي بن أبي طالب - الذي يلازمه ملازمة الظل - يودعهم ويبعث في نفوسهم العزم والصبر ، وان طريق الحق مرّ وعسير ، ولكن نهايته الخير والكرامة .

ويسير الركب ، وعين رسول الله (ص) تلامسه بنورها حتى غاب عنه ، فيصلي لربه ركعتين يطلب فيها أن يحفظ هذه الصفوة من كل سوء .

انها القافلة الأولى من المسلمين ، ومن بينهم أم سلمة وزوجها عبد الله - وعلى حـــد الرواية - انها أول ظعينة توجهت إلى

الحبشة .. ورغم تسرب بعض الأنباء إلى أبي سفيان عن سفر هذه القافلة ، لكن الله سبحانه يعمي قريش من أن تبصر بركب العقيدة ، وهو يتجاوز حدود مكة وهو يردد :

اللهم بحق محمد الا ما نجيتنا من شر الظالمين .

وتلف مكة أخبار المهاجرين إلى الحبشة ، وحنق أبو جهل ، وكاد يختنق من الغيظ ، وحاول أن يهجم على رسول الله ليأخذ ثأره ، لكن أصحابه منعوه ، أن ذلك لا يهون على آل عبد المطلب ، فبالأمس كان موقف أبي طالب من أبي جهل وينفض على رأسه الرفث ، والدم ، بعد أن اعتدى على محمد ، وكذلك موقف حمزة معه ، وثم موقف علي بن أبي طالب وهي مواقف لا تنسى .

وإذا فشلت قريش في أن تصيب موكب المهاجرين بسوء في مكة ، وفي طريق سفره ، حتى بلغ مأمنه ، لكن آمال هؤلاء الحاقدين تنشط ، حينما أشار عليهم أحدهم بأن ترسل قريش وفداً إلى النجاشي معززاً بما غلى ثمنة ، وخف حمله تغره بذلك ، ليسلم لها أبناءها الخارجين على دينه .

ولا بد أن يكون الرسول لهذه المهمة من لا يقل حقداً عن أبي جهل وأبي سفيان واجتمعت كلمتهم أن يكون عمرو بن العاص المعروف بالدهاء والمكر والخديعة مثلهم إلى ملك الحبشة ،

وأرسلوا معه عمارة بن الوليد بن المغيرة ، وحملوا له الهدايا والتحف، ولكنهما لم يفلحا من النجاشي بشيء، فقد عادا بالفشل الذريع ، وارجع ملك الحبشة كل هداياهم ، وبقيت قريش تحرق الأرم من الغيظ ، لقد فلت القوم من أيديهم .. وزاد حنقهم ان الدعوة اتسعت ، وان المسلمين تكاثر عددهم ، فبلغ المهاجرين هذا النبأ ، وظنوا انهم أصبحوا في مأمن من عودتهم ، وتحرك البعض منهم نحو مكة عائدين ولم يبلغ الركب العائد حدود مكة حتى ترامت لهم اخبار قريش ، وانها لا زالت في غيها سادرة ، وسعيرها لا زال متأججاً ، وسوطها العاني يلهب ظهور المستضعفين من اصحاب محمد ، ولم يدخل أحد من هذا الركب العائد لمكة إلا بجوار ، او مستخفياً تحت جنح الظلام .

وبقي خبر ما جرى بين عمرو بن العاص والنجاشي مكتوماً عن الاسماع ، فابن العاص لم يذكر لأصحابه من الطغاة ما جرى من الحوار ، وكيف رده النجاشي خائباً فاشلا ، حتى كان ذات ليلة تحدثت ام سلمة بكل ما دار هناك ، فتناقلته الألسن، ورووته حلقات السمر .

قالت ام سلمة :

لما نزلنا ارض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي ،

أمِنـّا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا تؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين ، وأن يهدوا له هدايا ما يستطرف من متاع مكة ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة (عمارة) وعمرو بن العاص .. وبعد ان وصلا اجتمعا إلى النجاشي فقدمـــا له الهدايا ، فقبلها منهما ، ثم قالا له : أيها الملك ، انه قد ضوى[1] إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، رجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشاؤهم لتردهم اليهم ، فهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بمـــا عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه ..

تقول أم سلمة : وكان ابن العاص قد رشى البطارقة من قبل بأنواع الهدايا ، ولهذا فما ان أتم كلامه ابن العاص حتى صاحت البطارقة : صدقا أيها الملك .. قومهم أعلى بهم عيناً ، واعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليردا بهم إلى بلادهم وقومهم ..

وغضب النجاشي وصاح : لا والله ، لا أسلمهم اليهما ، ولا بكاد قوم جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فاسألهم عما يقول هذان في أمرهم ، فان كان كما

---

١ – ضوى : لجأ ولصق ، وأتى ليلا

يقولان أسلمتهم اليهما، ورددتهم إلى قومهم ،وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ما جاوروني ..

تقول أم سلمة : فأرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ودعاهم للحضور ، فحضر وفد منا إلى مجلس الملك، وكان غاصاً بالحضور . ومن بينهم ابن العاص وصاحبه ، فقال لهم الملك : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ .

فتكلم جعفر بن أبي طالب ، وقال :

أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام،ونسيء الجوار،ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ،حتى بعث الله الينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحـــده ، لا تشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . فصدقناه وآمنا به ،واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرم علينا، واحللنا ما أحل لنا ،فعدا علينا قومنا،

فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ،وحالوا بيننا وبين ديننا،خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك ..

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

فقرأ عليه جعفر صدراً من سورة « كهيعص »فبكى النجاشي حتى أخضلت لحيته ، ثم قال لجعفر : ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم التفت إلى ابن العاص وصاحبه قائلاً : انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما .

وتتحدث أم سلمة فتقول : عندما باء الوفد بالفشل ، فقد ضاق ابن العاص ذرعاً فقال لصاحبه : والله لآتينّه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم [1] . فقال له الوليد : لا تفعل فان لهم أرحاماً معنا ، وان كان قد خالفونا . فقال ابن العاص : لا بد من ذلك سأقول للنجاشي انهم يزعمون ان عيسى بن مريم عبد .

وأصبحا على النجاشي ،فقال له ابن العاص: انك تجير هؤلاء

---

١ ـ خضراءهم : شجرتهم التي منها تفرعوا .

وهم يعتقدون بأن عيسى عبد ويقولون فيه قولاً عظيما .

وتـــأثر الملك فأرسل على المسلمين ، فسألهم عن رأيهم في عيسى ؟ فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا محمد (ص) ، يقول : هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فتكشفت أسارير الملك ، وقال للمسلمين : اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى من سبكم غرم ..

ثم رد على ابن العاص وصاحبه هدايا قومه وقال : لا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي :فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه ..

فخرج ابن العـــاص وصاحبه يتعثران بأذيالهما من الخزي والعار . ثم قالت أم سلمة : وأقمنا عنده بخير داره ..(١)

وعاشت الصحابية الجليلة زوجها برهة وجيزة في مكة ، اضطر في خلالها رسول الله أن يهاجر إلى يثرب بعد أن أمره الله بذلك ، حيث مات عمه أبو طالب « وكان له عضداً وحرزاً في أمره ، ومنعة وناصراً على قومه » وكذلك ماتت خديجة بنت خويلد ، « وكانت له وزير صـــدق على الاسلام » ، ونال من

---

(١) نقلنا بتلخيص الحديث عن السيرة النبويــة لابن هشام : ٢ / ٣٣٣ - ٣٣٨ .

قريش من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب .

واستقر رسول الله في المدينة ، وحوله أصحابه تاركين مكة لطواغيت قريش وأشقيائها ، وأدعيائهـــا ، وكان عبدالله بن عبد الأسد المخزومي زوج أم سلمة من السباقين إلى الهجرة ، ونقل الناقلون : ان أبا سلمة أول من هاجر بظعينته إلى المدينة ملتحقاً بالنبي (ص) .

وفي المدينة استقر بأم سلمة المقام، وزوجها في ركاب الرسول، لا يفارقه حتى في غزواته ..

وكان صباح يوم قد خالطت شروقه سحب حزن تظلل بيت الصحابية أم سلمة — وكما تحدد الرواية — بعد أحد انسابت الدموع محرقة من عيون أم سلمة فقد أسلم الصحابي الجليـــل روحه الطاهرة إلى خالقها ، وخمـــد البريق ، ولكن عطره لم يجف ، بقي عبقاً في التاريخ .

وتد ، أم سلمة أضلاعها على حزن عميق ، وصبر ثابت ، فقد كان لها زوجها وفياً ، وتقدم لخطبتها من تقدم بعد ذلك، فكانت تردهم رداً جميلا ، وفاء لابن عمها ، واعتزازاً به ولا تريد أن تخالط ذكراه صورة أخرى في حياتها . وما كانت تدري أم سلمة أن الشرف كل الشرف كان ينتظرها ليتوجها بفخر الدنيا ومجد الآخرة .

لقد تقدم إليها رسول الله خاطباً ، وماذا تقول ؟ وهل يجزع

من الضوء إنسان ، ومن الروضة عطر ... وانداحت إلى بيت النبي ، لتفرش قلبها الطـــاهر لسيد الناس وفاء وإخلاصاً ، وتترك إيمانها الشامخ يتصاعد في روعة السمو بما يجعلها في مصاف القداسة .

وكانت حياة أم سلمة في بيت النبي (ص) مجندة لخـــدمة صاحب الدعوة خاصة وإنه بحاجة إلا الاهتمام ، فهو عليه الصلاة والسلام في خضم العمل لتوطيد الدعوة ، وتوسيع آفاقها ، فمنذ انتقل إلى المدينة بدء في تثبيت الإسلام كنظام يحكم الأمـة ، ويقوّم مجتمعه بما يكفل له الاستمرار والغزوات تترى واحدة تلو الأخرى ، وراية الإسلام ترف ، وعلى النساء نصيب كما على الرجال ، فمن بدر إلى أحد ، ومن الخندق إلى بني قريظة ، وهكذا يسير الركب ينشر كلمة الإســـلام ، وتندك حصون الجاهلية ، وتندثر معالمها .

وأم سلمة في خدمة الرسول الأعظم في حله وترحاله ، وهي تقول : « ليت الله كتب علينا الجهاد ، كما كتب على الرجال ، فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم » .

وهكذا تبقى أم المؤمنين أم سلمة حتى انتقل الرسول الأعظم (ص) إلى ربه ، وحدث ما حدث بعده ، وكانت هذه المرأة الطاهرة في خلال تلـك الأحداث تقدر مسؤولياتها كزوجة نبي ، وكمسلمة مدت يد البيعة للخليفة وكامرأة وما عليها من واجب

شرعي ..

ويغرب قمر مساء ثقيل الظل ، وتشرق شمس صباح يحمل من الأحداث ما يرهق الكاهل .. فقد انتهى عهـــد الخليفه عثمان . ويبايع المسلمون علي بن أبي طالب .. وعلي كما يعرفه الكل رجلاً صلباً في دينه ، قوياً في إيمانه ، عنيفاً في ذات الله ، واقعياً في سيرته ، عادلاً في حكمه ، صلداً في مجابهة الباطل . والناس سواسية في نظره ، عقيل أخـــوه ، وقمبر خادمه ، وكلاهما في العطاء شيء واحد . الطبقية في عهده معـــدومة ، والقربى عنده لا تصل إلى حد الدين والسيطرة على بيت مـــال المسلمين . تقول الرواية :

« أتت إمرأتان إلى علي (ع) تسألانه : عربية ومولاة لها ، فأمر لكل واحدة بكر من طعام وأربعين درهماً ، فأخذت المولاة الذي أعطيت وذهبت ، وقالت العربية : ياأمير المؤمنين تعطيني مثل الذي أعطيت هذه ، وأنا عربيه ، وهي مولاة ؟ ، فقال لها علي (ع) : إني نظرت في كتاب الله عز وجل فلم أرَ فيه فضلا لولد اسماعيل على ولد إسحاق » .

وجاءه مال من اصبهان فقسمه سبعة أسباع ، ففضل رغيف فكسره بسبع ، فوضع على كل جزء كسرة ، ثم أقرع بين الناس ، أيهم يأخذ أول[1] .

---

(١) راجع سنن البيهقي : ٦ / ٣٤٨ - ٣٤٩ .

وعلي بن أبي طالب (ع) لم يكن غريباً على القوم ، ولكنهم كرهوا واقعيته في الحكم والعطاء ، والخليفة قبله كان يقطع لآله وذويه دون حساب ، وإذا كلم بذلك غضب وتأثر ، وقد ذكر أن الخليفة عثمان أمر لمروان بن الحكم ألف دينار من بيت المال ، وقد زوجة أبنته أم أبان . فجاء زيد بن أرقم مسؤول بيت المال ووضع المفاتيح بين يدي عثمان وبكى ، فقال عثمان : أتبكي إن وصلت رحمي؟ قال: لا ولكن أبكي لأني أظنك إنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة الرسول (ص) ، لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً . فقال عثمان : ألق المفاتيح با بن ارقم ، فإنا سنجد غيرك[1] .

ثم جاء في نفس اليوم مال من العراق فقسمه كله في بني أمية[2] .

وعلي بن أبي طالب لا يمكن أن يسير بهذه السيرة ، ويقف في وجه هذا الأسلوب مهما كلفه الأمر . وهذا ما أثار عليه القوم ، فلم تمر عليه فترة حتى بدت في الأفق سحابة خلاف ، أثارتها أم المؤمنين عائشة ، ومن ورائها المنتفعون الذين أرهقهم حكم علي ، وعدالته .

---

(١) شرح النهج : ١ / ٦٧ ط أولى
(٢) السيرة الحلبية : ٢/ ٨٧

فلقد ذكر : أن السيدة عائشة كانت في سفر لها ، وقد سمعت بموقف المسلمين من الخليفة عثمان فقالت : اقتلوا نعثلا قتله الله . ثم يبايع الناس علياً ، ويبلغها ذلك فتقول : لوددت أن السماء انطبقت على الأرض ، إن تم هذا . ويحك أنظر ما تقول .

فيقول لها المخبر ـ وهو عبيد بن أبي سلمة الليثي ـ هو ما قلت لكِ يا أم المؤمنين ، فولولت ، فقال لها : ما شأنكِ يا أم المؤمنين ، والله ما أعرف أحداً أولى بها منه ، ولا أحق ، ولا أرى له نظير في جميع حالاته ، فلماذا تكرهين ولايته ؟ ..

ولم تجب ، ولاذت بصمتها .. ولكنها بداية عاصفة .. انطلقت من أم المؤمنين عائشة ، تحمل في طياتها مآسي وأحزان ..

وأصداء طلحة والزبير ترن في أذنيها ، ياأم المؤمنين خذلي الناس عن بيعة علي ، واظهري الطلب بدم عثمان .. ومن وراء ذلك ألف مغزى ومغزى .

وأعلنت الحرب ، ودارت أم المؤمنين على المهاجرين والأنصار تحشد القوم للطلب بثار عثمان ، والثورة بوجه علي (ع). وكانت فيمن زارتهم السيدة أم سلمة ولم تكن زيارتها لها إلا لحملها معها على الخروج للطلب بدم عثمان ، وضمهما مجلس :

عائشة : يابنت أبي أمية ، أنت أول مهاجرة من أزواج

رسول الله (ص) ، وأنت كبيرة أمهات المؤمنين ، وكان رسول الله (ص) يَقسم لنا من بيتك ، وكان جبريل أكثر ما يكون في منزلك.

أم سلمة : لأمر ما قلت هذه المقالة ؟

عائشة : إن عبد الله أخبرني أن القوم استتابوا عثمان ، فلما تاب قتلوه صائماً في الشهر الحرام ، وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ، ومعي الزبير وطلحة ، فاخرجي معنا ، لعل الله يصلح هذا الأمر على أيدينا وبنا .

أم سلمة : إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان ، وتقولين فيه أخبث القول ، وما كان اسمه عندك إلا نعثلا ، وإنك لتعرفين منزلة علي بن أبي طالب عند رسول الله (ص) ، أفاذكرك ؟.

عائشة : نعم .

أم سلمة : أتذكرين يوم أقبل عليه السلام ونحن معه ، حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال خلا بعليّ يناجيه ، فأطال فأردتِ أن تهجمين عليهما ، فنهيتك فعصيتني ، فهجمت عليهما فما لبثت أن رجعتِ باكية ، فقلتُ : ما شأنكِ فقلتِ : أني هجمت عليهما وهما يتناجيان ، فقلتِ لعليّ : ليس لي من رسول الله (ص) إلا يوم من تسعة أيام ، أفما تدعني يابن أبي طالب ويومي فأقبل رسول الله (ص) عليّ وهو غضبان محمر

الوجه ، فقال : ارجعي وراءكِ ، والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ، ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان ، فرجعت نادمة ساقطة !

عائشة : نعم أذكر ذلك .

أم سلمة : وأذكرك أيضاً ، كنت أنا وأنتِ مع رسول الله (ص) وأنتِ تغسلين رأسه وأنا أحيس له حيسا ، وكان الحيس[1] يعجبه ، فرفع رأسه ، وقال : « ياليت شعري أيتكنّ صاحبة الجمل الأذنب ، تنبحها كلاب الحوءب ، فتكون ناكبة عن الصراط » فرفعت يدي من الحيس فقلت : أعوذ بالله وبرسوله من ذلك ، ثم ضرب على ظهركِ ، وقال : « إياك أن تكونيها » ثم قال : « يابنت أبي أمية إياك أن تكونيها .. ياحميراء ، أما أنا فقد أنذرتك » .

عائشة : نعم أذ كر هذا !!

أم سلمة : وأذكرك أيضاً كنت أنا وأنت مع رسول الله (ص) في سفر له ، وكان عليّ يتعاهد نعلي رسول الله (ص) فيخصفها ، ويتعاهد أثوابه فيغسلها ، فنقبت له نعل ، فأخذها يومئذ يخصفها ، وقعد في ظل شجرة ، وجاء أبوك ومعه عمر ، فاستأذنا عليه ، فقمنا إلى الحجاب ، ودخلا يحادثانه فيما أراد ، ثم قالا : يارسول الله إنا لا ندري قدر ما تصحبنا ، فلو

---

(١) الحيس : تمر يخلط بسمن واقط ينمجن وبدلك حتى تمتزج ثم يندر نواه

أعلمتنا من يستخلف علينا ، ليكون لنا بعدك مفزعاً ، فقال لهما: أما إني قداري مكانه ، ولو فعلت لتفرقتم عنه ، كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون بن عمران ، فسكتا ثم خرجا، فلما خرجنا إلى رسول الله (ص) قلت له - وكنت أجرأ عليه منا - مَن كنت يارسول الله مستخلفاً عليهم ؟ فقال : «خاصف النعل » ، فنظرنا فلم نر أحداً إلا علياً ، فقلت : يارسول الله ما أرى إلا علياً ، فقال : هو ذاك .

عائشة : نعم أذكر ذلك .

أم سلمة : فأي خروج تخرجين بعد هذا ؟

عائشة : إنما أخرج للإصلاح بين الناس ، وأرجو فيه الأجر إن شاء الله .

أم سلمة : أنت ورأيك ..

فانصرفت عائشه عنها[1] .

وأم سلمة في حوارها المتقدم مع السيدة عائشة تريد أن تذكرها بواقع الأمر ، ولم تقصد من وراء ذلك كسب رضاء الإمام علي « ع » ، أو التزلف إليه ، فالصحابية الجليلة ، وأم المومنين أرفع من التزلف وأعلى من كسب رضا أحد غير الله سبحانه .

إن أم سلمة لم تتأثر بقول أحد من الذين حرموا العطاء

(١) شرح النهج ابن أبي الحديد : ٩ / ٢١٧ - ٢١٨ .

الواسع ، ولم تخضع لإدارة المنتفعين الذين خسروا الثروات الطائلة في عهد علي إنما هي بدافع إيمانها قالت ما تقدم للسيدة عائشة ثم كتبت إلى الإمام علي (ع) من مكة تقول :

أما بعد ، فإن طلحة والزبير وأشياعهم يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة ومعهم عبدالله بن عامر بن كريز ، ويذكرون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنهم يطالبون بدمه ، والله كافيهم بحوله وقوته ، ولولا ما نهانا الله عنه من الخروج ، وأمرنا به من لزوم البيوت لم أدَع الخروج إليك والنصرة لك ، ولكني باعثه نحوك ابني ، عدل نفسي عمر بن أبي سلمة ، فاستوصي به ياأمير المؤمنين خيراً .

ورغم هذه المحاورة فإن السيدة عائشة بذلت قصارى جهدها لإقناع السيدة أم سلمة بالخروج معها ، والحقيقة إنها تروم أن تورطها بالأمر ، لتكون التبعة مشتركة بينهما .

وسكت الشيخ أبو معاذ قليلاً ، ولاذ بصمت مفاجىء ، ثم قال :

السؤال : لماذا كانت السيدة عائشة تلح على أم سلمة دون غيرها من أمهات المؤمنين ، لعلنا نستطيع أن نضع اللمسات الأولى على الجواب ، عندما نلاحظ حديث الرسول الأعظم لهن ، عندما خاطبهن « ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأذنب ، تنبحها كلاب الحوءب ، فتكون ناكبة عن الصراط » ،

وأم المؤمنين عائشة تحاول أن تورط أم سلمة معها ، وهي من أمهات المؤمنين الجليلات ، ليضع التنبؤ بينهن بالإضافة إلى أن تضامن أم سلمة مع السيدة عائشة سيكسب الموضوع صـــورة أعمق لما لأم سلمة من المكانة في نفوس المسلمين عامة ،والصحابة خاصة ، وميلها إلى الإمام علي بصورة أخص .

وحتى اللحظة الأخيرة قبل سفر السيدة عائشة إلى البصرة ، أتتها أم سلمة وقالت لها :

« إنك سُدة بين محمد رسول الله (ص) وبين أمته ، وحجابك مضروب على حُرمته ، قد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه ، وسكن عقيراك فلا تصحريها ، الله من وراء هذه الأمة لو أراد رسول الله (ص) أن يعهد إليك عهداً عُلت عُلت ، بل قد نهاك عن الفرطة في البلاد إن عمود الإسلام لا يثاب بالنساء إن مال ، ولا يُرأب بهن إن صُدع ، فماديات النساء غض الأطراف ، وخفر الأعراض ، وقِصَر الوهازة ، ما كنت قائلة لو أن رسول الله (ص) عارضك بعد الفلوات ، ناصبة قلوصا من منهل إلى آخر ، إن بعين الله مهواك ، وعلى رسوله تردين وقد وجهت سدافته ، وتركت عهيداه . لو سرت مسيرك لئذا تم قيل لي : ادخلي الفردوس لاستحييت أن ألقي محمداً (ص) هاتكة حجابا ، وقد ضربه عليّ ، اجعلي حصنك بيتك ، ووقاعة الستر قبرك ، حتى تلقينه ، وأنت على تلك أطوع ما تكونين لله بالرقبة ،

واتصر ما تكونين للدين ما حلت عنه . لو ذكـــرتك قولاً تعرفينه لنهشت به نهش الرقشاء المطرقة .

فقالت عائشة : ما أقبلني لوعظك ، وليس الأمر كما تظنين، ولنعم المسير مسير فزعت به إليّ فئتان متناجزتان ، إن اقعد ففي غير حرج ، وإن أخرج فإلى مالا بدلي من الازديادمنه[1].

وأم سلمة يدفعها إيمانها لتقول كلمة الحق عندما تقتضيها الساعة ، وهي مطمئنة إلى أن مسؤولية الامة انتهت إلى رجل تعرفه هي ويمرفة غيرها إنه رجل حنكته الظروف ، وعاش مجريات الأمور أكثر من غيره . وقـــد عرّفه الرسول الأعظم للأمـــة « ياعلي لا يعرفك إلا الله وأنا » و « علي مع الحق ، والحق مع علي » و « من كنت مولاه فهذا علي مولاه .. اللهم وال من والاه ، وعادي من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله » .

وكان لهذه المعارضة من أم سلمة أثره عند من يعرف مدى ورع أم المؤمنين أم سلمة وتقواها . غير أن التيار كان أقوى، فالقوى اللاهثة وراء الأطماع والفساد تجمعت وراء أم المؤمنين عائشة في تظاهرة صـــاخبة مطالبة بالثأر لعثمان ، وهم الذين أباحوا دم الخليفة بالأمس .

وراح زمان ، وموضـــوع المعارضة يقوى فلقد تبناه زعيم

---

(١) شرح النهج : ٦ / ٢٢٥ - ٢٢١

الأمويين معاوية بن أبي سفيان مطالباً بثأر بدر وحنين ، وبلغ من حقده على الإمام علي عليه السلام أن أمر بلعنه على المنابر فريضة بعد كل صلاة ، فكتبت إليه توبخه قائلة :

« إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم ، وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبه ، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله » .

وأظهرت أم سلمة موالاتها إلى الإمام علي عليه السلام ، وقد اتهمها بعض المؤرخين بأنها لمـــا « رأت صنع عائشة ، قابلتها بنقيض ذلك ، وأظهرت موالاة علي عليه السلام ، ونصرته على مقتضي العداوة المركوزة في طباع الضرتين » .

وغريب هذا القول من ابن أبي الحديد بالنسبة لهذه الصحابية الجليلة التي عرفت الحق فاتبعته ، وسارت على الصراط القويم ، متجنبة ما نهى عنه الرسول الأعظم . حتى يبلـــغ الأمر بأم المؤمنين أن تسير على ما تملي عليها عاطفتها ، وهي معارضة ضرتها .. أستغفر الله أن تكون أم سلمة بهذا المستوى. وحياتها صورة حية لإيمانها العميق .

وقد عاشت أم سلمة الحقبة الصاخبة بالأحداث المؤلمة ، والمآسي المحزنة بعد وفاة الرسول إلى مقتل الإمام الحسين عليه السلام ، وقد أثرت فيها تلكم الأحداث واستنكرت ظـــلم الأمويين ، وعنت الطغاة وحكمهم القائم على الأرهاب والسيف

وتوفيت – رحمة الله عليها – في عهد يزيد بن معاوية – وهي ناقمة على الحكم الذي ضرب بالقيم الدينية عرض الجدار .

وانتهت حياة هذه الصحابية الناصعة ، والتي زهت بكل ما يسمو به الإنسان من إيمان ، وهداية ، وصدق ، وثبات على العقيدة.. وبقي هذا النجم اللامع ينير الآفاق ، ولن يغيب عن سماء المبدأ حتى يوم القيامة .

فاطمة بنت أسد

ويقبل الليل ، ويقبل معه سمار الشيخ أبو معاذ يتجمعون حوله بلهفة أن ينقل لهم حديث الأمجاد ، وذكريات البطولات .

ومن ستكون محور حديثه في هذا المساء ، ودارت الأسماء في أذهان المستمعين ، ولكن لم يصل حسابهم إلى« فاطمه بنت أسد » .

ويتحدث الشيخ فيقول :

جمع عبد المطلب زعيم الهاشميين أولاده في مساء يوم رائع ، وقد علم الكل أنه قادم على أمر ، فقد كانت عادته إذا ألح عليه موضوع خطير جمع أولاده وأهل بيته ليقول لهم ما يجول في خاطره .

وعبد مناف أحد أولاد عبد المطلب ، ولم يخف على أخوته ميل أبيه إليه وكان يركز عليه ليكون المرشح لمركزه من بعده .

ويلتفت الأب الوقور لولده : أما آن لك أن تتزوج ،فنسعد

بزواجك ولم يرفع عبد مناف طرفاً لأبيه ، بل بقي مطرقاً برأسه هيبة لشيبة الحمد .

وأعاد السؤال عبد المطلب مرة أخرى ، وينساب الجواب هادءاً كأنه نسمة صبح .

أنت أعرف بمصلحة بنيك يا أبتاه ..

ويلف المجلس صمت رهيب ، يبدده بعد هنيه زعيم الهاشميين ، وهو يخاطب عبد مناف :

وهل لك بإحدى بنات العرب رأياً ؟

وبحشمة الانسان الشامخ يرد عبد مناف على أبيه .

كل ما تختاره أنت لي فيه رضا وصلاح .

ويغور الأب العطوف في تفكير عميق .. فإن حساً خفياً يحدثه من وراء الغيب في شأن زواج عبد مناف ، ولابد أن يجهد الاختيار ، ليكون اللقاء مثمراً كما يرجوه .

وفي الليلة الثانية يلتئم شمل المجلس من جديد ، وعبد المطلب فيه كهالة قمر وحولها حزمة نجوم ، ويقول لعبد مناف :

لقد اخترت لك يابني فاطمة بنت أخي أسد بن هاشم ، ولها من المميزات ما تفضلها على بنات العرب .

وتتهلل العيون فرحاً .. أي بنت من بنات العرب تضاهيها مجداً ، وتسابقها شرفاً وكيف لا تكون كذلك ، وهي غص

أخضر من شجرة المجد والشرف .

وتعم الفرحة بيت عبد المطلب ، وتمتد إلى بيوت بني هاشم ، فقد سرى النبأ كوثبة العطر ، وصحوة النور .. فاطمة بنت أسد تزف إلى عبد مناف . أول هاشمية يضمها هاشمي لعش الزوجية ..

وقد اختار سيد بني هاشم هذا اللقاء الكريم ليحمل الزوجين رسالة الرعاية والإثمار .

وتمر الأيام وزهرة العرس تثمر الأشبال ، وعبد المطلب يسعد بأحفاده من عبد مناف وغير عبد مناف ، وإن كان في نفسه لإبنيه عبد مناف وعبد الله إحساس وشعـــور خاص ، ولعل الأيام ستكشف ما كان يريده عبد المطلب الرجل البعيد التفكير .

وضمت الدنيا أضلاعها على سيد بني هاشم عبد المطلب بعد عمر مديد لينعم بلقاء رب كريم .

وارتسمت على الوجوه صور المـــأساة الكبرى ، وبدأت الاستفهامات تتحرك على الألسن والشفاه في كل ناد ومجتمع ، من سيخلف هذا الطود الشامخ في مركزه الخطير .. إن أولاد عبد المطلب عديدون ، وكلهم يأمل بنيلها ، ويطلبها .

ولكن صفات عبد مناف « أبو طالب » ، والسمات التي تحلى بها جعلته في أعين الناس هو « سيد الأبطح » وإن كان لم

يملك ما كان يملكه أبوه من مال وثروة كبيرتين ، حتى قالوا فيه ـ والاسلام بعد لم يبزغ فجره ـ : « قــل أن يسود فقير وساد أبو طالب » .

ولم يكن يبعث هذا السمو كونه أحد أولاد عبد المطلب فحسب ، إنما مبعثها المؤهلات العالية التي ورثها له أبوه ، وإن لم يورثه المـال ، فقد كانت لها أكبر الأثر في بلورة هذا الانسان، وصياغة شخصيته ، وتميزه عن بقيه أخوته بما كان له في دنياه من مكانة مرموقة في مكة وغيرها ، ومنزلة سامية فى قريش ، وبقية القبائل ، وكان له من الطبيعي أن تنتقل له السيــادة الكاملة ، والتقاليد الموروثة في شأن بيت الله ، والعــادات القبلية .

وقد توسم الأب الراحل سيد بني هاشم في ولده « عبد مناف » أنه الرجل الذي يسد الشاغر ، ويقوّم به الحق، ويؤدي الأمانة ، ويأخذمنه كل القيم التي اتسم بها ، والمثل الإنسانية التي ميزته عن غيره .

ولهذانرى يقول مرة لبعض أصحابه المقربين اخترت لولدي عبد مناف امرأة لتكون له عوناً في أيامه ، وساعداًفي أزمانه، تلك هي فاطمة بنت أخي .. وحسبها شرفاً أن يكون رأي سيد بني هاشم فيها كما يقول :

ولقد كان عبد المطلب عميقاً جداً في هذا الاختبار لولده

عبد مناف ، فقد أكد عليه أكثر من مرة على أن يتولى رعاية حفيده ويتيم أخيه عبدالله « محمد » لا من حيث أنه يتيم ولده الذي أحبه كثيراً ، ولا من حيث إنسانيته تهز الجد الذي تجسدت فيه القيم ، لا هذا ولا ذاك ، إنما هو لشيء أهم من كل هذا .

إن إيمان عبد المطلب عميق وعميق ، وهو الذي تربطه بالله سبحانه رابطة لم يكن بالسهل تحديد أبعادها ، انما نكاد نستوعبها من خلال الأزمات القاتمة التي مرت به في غزو جيش أبرهة ، وهي قوة لم يتمكن قومه من مجابهتها ، فيقف عند باب الكعبة ويرمق بطرفه نحو السماء ـ والكعبة يحتلها عدد كبير من الأصنام ـ ، ويرسل كلماته الهادئة إلى مدبر الكون بقوة لم يملكها كل من كان حوله من العرب حينذاك وينتفض جلال الكلمة من ذلك الفم الطاهر .

« أما البيت فله رب يحميه ، اللهم ان المرء يمنع رحله ، فامنع رحلك » .

وهذا إيمان عميق يتدفق بصورة واضحة في غير حرج وارتباك يشق الأجواء الغارقة بالكفر لتستقر في كبد السماء .. وهذه الحادثة واحدة من قضايا عديدة تجلى فيها إيمان عبد المطلب .

وان تأكيده على ولده عبد مناف ، دون سائر أولاده في

رعاية حفيده « محمد » يوضح لنا احساس الشيخ المؤمن الذي يكاد يرى الغيب رأى العين فيقول له ، وهو يهمس في أذنه كي لا يسمعه أحد :

« يا أبا طالب .. سيكون لا بني هذا - ويأخذ يده ليضعها في يد حفيده - شأن فاحفظه ، ولا تدع مكروها يصل إليه».
وكان كما أراد وتمنى .. رعاية قل أن تجدها عند انسان، وحماية تقف دونها كل الوان الحماية والوفاء .

ولم تكن بزوجته فاطمة بنت أسد أقل من رعاية لانسان الزمن الخالد ، ولا هو أكثر منها عناية واهتماماً بشأن هـذا الانسان العظيم - وان اختلفت نسبة العناية والاهتمام بينهما .

ولعلى شيخ الهاشميين ، وهو الإنسان العميق الفكر ، البعيد القول كان مطمئناً إلى هذه الحقيقة إلى إنسانية هذين الزوجين ، وايمانهما المثالي في حفظ ورعاية محمد زماناً طويلاً ، لم يخلو يومه من القتاد والشوك ، وعثار الطريق ، بحيث كانت فاطمة بنت أسد - كما يتحدث هو الرسول نفسه عنها فيقول - كانت تجوع وتشبعني ، وتعرى وتكسيني، وتمنع نفسها طيب الطعام وتطعمني تريد بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة » .

ومرة أخرى يقـول لعـلي ، وهو يتحدث عن عطف فاطمة عليه :

« يا علي لقد كانت تجوّع أولادها وتشبعني، وتشمث أولادها

وتحدثني والله لقد كان في دار أبي طالب نخلة ، فكانت تسابق إليها من الغداة ، لتلتقط ما تحتها من تمر ، ثم تجنيه – رضي الله عنها – فإذا خرج بنو عمي ناولتني ذلك » .

ولم يكن هذا وأكثر من هذا من العناية والرعاية لرسول الله مبعثها العاطفة لانها لم ترزق البنين ، ولم تنعم بنعمتهم . أبداً فإن لفاطمة من البنـــين أكثر من واحد كانت تزهو بهم ، وتقرعينها برؤيتهم .. وهي مع هذا كانت تقدم محمداً بالرعاية والعنـــاية على أولادها ، وما يدرينا ، فلعل شيخ الهاشميين عبد المطلب همس في أذنها ، كما همس في أذن ولده ابي طالب ، ان لهذا اليتيم شأناً عظيماً ، فتفانت المرأة المؤمنة في رعايته وخدمته .

وتستمر فاطمة بنت أسد في الاهتمام بمحمد ، وهو يتسلق الأيام ، وكلما ازداد في العمر شموخاً كانت هذه المرأة تهتم أكثر في رعايته والعناية به ، رغم أنها تقوم بشأن أولادها الثلاثـــة طالب ، وعقيل ، وجعفر ، وكل منهم يكبر الآخر عشر سنين ، وهي على أبواب الوضع .

وفي صباح زاهي الأضواء ، وقد غص فنـــاء البيت العتيق بحلقات الناس ، تمر بهم امرأة عليها من جلال الحشمة ما يجلب الأنظار ، ومن مهابة الشرف ما يفرض احترامه على من يراها – وهي في طريقها إلى البيت لتجدد به عهداً .. وكان كما تحدده

الرواية ـ صباح الجمعة الثالث عشر من شهر رجب ، قبل البعثة بعشر سنين .

وشهر رجب من الأشهر الحرم الذي اتفقت العرب أن لا يكون فيه قتال ولا حرب ، ولا غزو ، ليتاح للناس قصد هذا البيت يتلمسون فيه البركة ، واستجابة الدعاء .

وتطوف سيدة بني هاشم في البيت الكريم لتطلب الرحمة والبركة من خالق هذا الكون ، وفاطمة بنت أسد ليس لها بالأصنام المسندة بأرجاء الكعبة أية صلة ، وإيمان بأمرها .

ولم تلبث زوجة شيخ الأبطح، وسيدة بني هاشم أن تضطرب وتهتز ويبدو عليها شيء كانت لا تحتمل انه سيفاجئها بهذه الساعة . وما كان الطارق يسمح لها بالتفكير والتخطيط ، ولتلملم من نفسها ما تقدر عليه ، أو تبادر إلى مغادرة هذا المكان ، وأين ما التفت ترى عيوناً مشدودة إليها ، ووجوهاً تتوجه نحوها ، وقد بدى عليها الجهد واضحاً ، وهي تحاول أن تكتم من أمرها فلا تستطيع، وتبحث عن امرأة لتساعدها على ما بها فلم تجد .. والناس ينظرون إليها بين مشفق ومتألم .. انها سيدة قومها ، وكبيرة أسرتها ، ومن يجر أن يتقدم إليها بالسؤال ، فحشمتها تمنعهم من الوصول إليها .

انها لحظات المخاض .. الجنين الذي تحمله منذ تسعة أشهر ، حان قدومه ، لتكتحل الدنيا بطلعته . وتقف فاطمة مضمورة

الانفاس ، جبينها يرشح عرقاً، ولم تر أمامها إلا أن تستمين برب هذا البيت ، ليستر عليها ، ويفرج عنها .

وهي في هذه الساعة الشاقة التي عطلت كل امكانياتها رفعت عينها إلى السماء ، وشدت أكفها المتعبـــة من ألم الطلق باستار الكعبة ، وناجت ربها بمناجاة تملأ النفس خشوعاً ورهبة ليستر عليها ، ويفتح لها باباً يساعدها على حل مشكلتها :

يا رب إني مؤمنة بك ،وبما جاء من عندك من رسل و كتب ، واني مصدقة بكلام جدي ابراهيم الخليل ، وانه بنى البيت العتيق ، فبحقه عليك إلا ما سترت علي ، ويسرت أمري ..

ويلح عليها الطارق ، ويزداد بها الألم ، ويثقل بها الخطو ، وتلج البيت وهي تحاول أن تخفي بها نفسها من أنظار المتطلعين إليها ، وهي تكاد تلتصق بها ، ولكنها عاجزة عن إبـــداء المساعدة لها .

ويتزاحم الجالسون حول البيت ، وقد شاهدوا زوجة شيخ الأبطح تلجأ إليه وقد ضايقها المخاض ، بحيث لم يترك الفرصة لهـا حتى للوصول إلى أقرب مكان لها بعد البيت .

وتتعالى من وراء ستر الكعبة صرخات المرأة التي على أبواب الوضع ، وأنينها المحفوف بالصبر ، ولن يدوم طويلا ، فقد ارتفع صوت الطفل المولود إلى جانب صوت أمة المرتعش الذي أنهكه الألم ، وأرهقه الرعب .

وتصل الأخبار إلى بيت أبي طالب تنبئه بجلية الأمر، وتحاول النسوة من بني هاشم أن يهرعن لمساعدة سيدتهن ، ولكن دون جدوى ، فقد انتهى الأمر ووضعت فاطمة مولدها ، وصوته يبدو للمنصتين .

ويذهب شيخ الهاشميين ومعه أولاده ، ويتقدمهم حفيد عبد المطلب ، ويتيم عبدالله ، محمد ، وقد علت وجوههم فرحة ومسرة ، بسلامة الأم ، واشراقة الوليد ، ويقف الزوج الكريم على باب الكعبة ليستأذن من زوجته بالدخول عليها ، ومعه أولاده ولم يكن محمد إلا واحداً من أولادها ، وأكثر ، وقد صرح هو نفسه بذلك ، إذ يقول : « إنها أمي » .

وتقبل أم الأشبال على زوجها وأولادها وهي تحمل وليدها على يديها الذابلتين من ارهاق الوضع ، وقد علتهـا الصفرة ، وامتزجت بالخجل والحياء وقد التفت بازارها ، ولملمت أطرافها رغم أن المساء قد ضرب أستاره على الدنيا ، لكن الطاهرة المحتشمة تحاول أن تجتاز البيت العتيق إلى بيتها ولم تقع عليها عين .

وقبل أن يحتضن أبو طالب وليده سبقه محمد وهو لا يزال بين ذراعي أمه ، فيطبع على جبينه قبلة جلبت أنظار المشاهدين . فلقد أنشد إليه محمد ، وتعلق به ، وكأنه قد وجد فيه ما كان يفقده .. ولم يستغرب منه أبو طالب ، ولا فاطمة

هذا الصفاء الذي ظهر من محمد ، فهم على علم أن لهذا الانسان شأناً عظيما .

ويحتضن أبو طالب ويتقدم لزوجته ، ويحف به أولاده ، ومحمد أمامهم ويخرجون من وراء ستار الكعبة ، والقـوم في انتظار ، وتشرأب الأعناق وتحاول أن تتطلع من خـلال نور القمر الزاهي لهذا الموكب الفريد .. حتي يصلوا إلى بيت أبي طالب ، وتستقر الأم المتعبة ، وان كانت عيناها لم تغفو تلك الليلة ، فهي تستعرض ذكريات يومها الذى امـتزج بالرهبة والفرحة ..

أية انسانة تنال هذا الشرف المظيم غـيرها .. في وسط الكعبة تضع وليدها، وكيف لا يكون علي قد علا شرفا بمولده، كما علا من قبل بأصله الرفيـع .

ويتسائل الأولاد من أبيهم عن اسم المولود الجديد ، فيقول سميته « عليا » وقد أعجب الكل بهذا الاسم .

ولم يشغل الام الطاهرة الوليد عن الاهتمام بأم محمد ، فهي تزداد اهتماماً ، وعناية به ، وهـو يوليها الاحترام والتقدير ، حتى إذا ما شب على وتعدى الخامسة من عمره بدء يلازم ابن عمه محمد ملازمة الظل ، يكاد لا يفارقه أبداً ..

كانت فاطمة سعيدة جداً بملازمة ولدها علي لمحمد ، كما هو شأن أبي طالب ورغم أن قريشاً واتباعها كانوا يلاحقون محمداً

بالأذى ، ويتربصون به الفرصة ، فقد كان علي لابن عمه أكثر من ظل ، وكانت الوالدة المؤمنة تحث ولدها ، وتدفعه على ذلك .

وأعان محمد دعوته ، وماجت الناس في ذلك بين مصدق ، وبين ساخر وكانت فاطمة بنت أسد من السابقات إلى الاسلام واختلفت الرواية ، فبعضها تحدد أنها أول امرأة بايعت الرسول بعد خديجة ، وأخرى تذكر انها اسلمت بعد عشر من المسلمين . . والشيء الذي لا يمكن نكرانه انها من السباقات إلى الاسلام .

آمنت بدعوة محمد (ص) ولم يكن غريباً ان تؤمن زوجة شيخ الأبطح بدعوة الصادق الأمين بهذه السرعة ، فقد واكبت حياة الرسول الأعظم ، وعرفت منه الايمان ، والصدق ، وكانت تهتز عندما يعلمها زوجها زعيم الهاشميين أنه عثر على محمد في أعالي الجبال ، وإلى يمينه علي ، وهما يصليان ، ثم يأمر ولده جعفر أن يصل يسار ابن عمه ، فتطير المرأة فرحاً ، وترفع كفيها إلى السماء ، وتناجي ربها ، ولم يكن هذا فحسب ، انما كانت تهتز حماساً ، وتسعد استبشارا كلما سمعت أن ولدها دافع عن ابن عمه ، وذب عنه . وكم كانت تعيش على قلق وتفكير حتى يعود محمد إلى بيته ، وحتى بعد زواجه بخديجة ، فقد كانت هي هي لن تختلف عن السابق ، ولم تعتبر أن مهمتها قد انتهت عن رعاية محمد . ابداً انها بمنزلة أم له ، وتدفع بولدها علي لخدمته ، وتعتبره شرفاً وكرامة .

وأعلن النبي هجرته من مكة ، وبدأ المؤمنون يلتحقون بالنبي ، وكانت فاطمة في مقدمة المهاجرين، وتؤكد الرواية انها هاجرت من مكة إلى المدينة على قدميها حتى التحقت بالنبي ، وقضت في ظله بقية عمرها .

وليس بالغريب اذا عرفنا ، ان رسول الله كان يزورها ، ويقيل في بيتها ، ويحترمها احتراماً عظيما .

وعندما قربت منها الوفاة أوصت إلى رسول الله ، فقبل وصيتها ، ثم لفظت أنفاسها الطاهرة فحمل الرسول جنازتها،حتى أوردها قبرها ، وكفنها بقميصه ، واضطجع بقبرها، ثم انكب عليها طويلا يناجيها ، ويقول : « لا إله إلا الله ، اللهم اني استودعها اياك ، وخرج وسوى عليها التراب » .

واستغرب الذين شاهدوا الموقف ما فعله رسول الله ، فقالوا له : ما رأيناك صنعت ماصنعت مع فاطمة لأحد قبلها .

وبحزن وأسى أجاب الرسول الأعظم : « انه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها . انما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة ،واضطجعت معها في القبر ليهون عليها وحشة القبر » .

ورسول الله لم يفعل ذلك مع فاطمة بنت أسد ما فعله بدافع العاطفة والمحبة كلا ، انما لهذه المرأة الطاهرة مواقف كريمة تجلى فيها مدى ايمانها وعقيدتها بالدعوة التي نادى بها محمد في حين عز النصير ، وفقد المعين ، فكانت أم الأشبال ساعداً له تدفع

ولديها ، وتمين زوجها لنصرته ، وعندما أعلن الدعوة كانت من السباقات للمبايعة .

وقد روى الامام الصادق (ع) : ان الله تعالى أوحى إلى نبيه (ص) اني حرمت النار على : صلب انزلك - ويقصد عبد الله بن عبد المطلب - ، وبطن حملك - ويقصد آمنه بنت وهب - ، وحجر كفلك - ويقصد فاطمة بنت أسد - ، وأهل آواك - ويقصد أبا طالب - .

رحم الله فاطمة بنت أسد ، وجزاها عن الاسلام خيراً فقد كانت مثالا رائعاً للتضحية والفداء ، والشرف والكرامة ..

سميرة بنت خياط

أم عماد

وحدث الشيخ أبو معاذ سماره عن المرأة المجاهدة «أم عمار» تلك التي لاقت من عنت قريش وطواغيتهـــا ما تقشعر منه الأبدان .

قال : في ليلة مشرقة عاد أبو حذيفة بن المغيرة من سمره إلى داره ، ومعه ضيف تدل شمائله على أنه غريب ، . ما أن استقر بهما المكان حتى نادى أبو حذيفة جاريته :

سمية .. سمية ..

نعم يامولاي ..

أعدي الأكل للضيف ، ووفري له راحته .

السمع والطاعة ..

وتحمل سمية الطعام والمـــاء للقادم .. إنه ضيف يماني .. طرق مكة ، وطاف بأرجاء البيت ، ولم يعرف من أهل هذا البلد أحداً

وتدخل عليه سمية ، وتلقي على الرجل نظرة عابرة .. إنه أسمر اللون ، على سيمائه ملامح طيبة ، وقد اقتطف الزمن من

عمره عقوداً ثلاثة ، وأكثر بقليل ، وكل ملامحه تدل على حشمه ، لم يرفع إليها طرفاً ..

ووضعت أمامه حاجته من الماء والطعام ، وذهبت ، وهي تودعه بنظرة احترام ..

وأصبح من واجبات هذه الأمـــة خدمة هذا الضيف ، وكلما امتدت الأيام اشتدت الصلة بينهما .. فقد وجد ياسر في هذه المرأة السمراء الطهر ، والعفة كما لمست هي فيه ، النجابة والنزاهة .. وصـــار كلما لاحت له خفق قلبه ، ورفرفت البسمة على ثغره . . وأخذ يتجلى لأهل البيت ما كانت سمية تحرص عليه من رعاية وعناية لياسر .. فيغمزنها صويحباتها ، ويتهامسن من حولها بكلمات فيها شيء من التعريض البريء .

إن سمية معروفة لدى كل من في البيت أنها الفتاة الوادعة الطاهرة العفيفة ، لم تنبس حولها شفة بسوء ، ولم يلهج أحد عنها بمكروه .

وياسر ذلك الإنسان الذي أثبت في بيت أبي حذيفة طهارة العرض ونقـــاء السريرة ، ولم يختلف فيه اثنان أنه من العفة بمكان .

وعرف أبو حذيفة ان حباً نقياً ، ووداً طاهراً نمى في قلبين كريمين وتوثق بمرور الزمان .. وياسر لمس فيه ـ طيلة أيامه التي قضاها معه ـ شرفاً ووفاء ، ونزاهة ، مما قربه إليه ..

وسمية تلك الجارية التي درجت في بيته ، حتى أصبحت يافعة عليها من شمائل الأنوثة ، ما زادها حشمة ووقاراً ..

وصمم على أمر . وحدث به زوجته .. فهو يروم تزويج سمية من ياسر ولم تكن زوجة أبي حذيفة بأقل حماساً منه في تحقيق هذا الأمر ، ومهما كانت مكانة هذه الأمة . فلابد لها من زوج في النهاية .. وياسر كفؤ لأمتها المحبوبة .. وبكل رحابة صدر ، ورغبة ، وتقول لزوجها : نفـــذ ياأبا حذيفة رأيك وأكمل اللطف على حليفك ، فإنه أهل لكل مكرمة .

ويتسرب النبأ في أرجاء العائلة ، ويتجاوز إلى آذان بعض الرجال ..

وفى صباح باسم يقصد أبو حذيفة حليفه ياسر ، وهو يحمل له أطيب ما يتمناه ..

ياسر ،لابد للرجل من مرأة تعينه ، وتنجب له ، وقد صممت على البقاء معنا ، فلابد لك من زوجة تعينك على أمرك ..

ويلوذ ياسر بالصمت ، وقد طافت في ذهنه ذكرى حبه الطاهر لسمية ، تلك الفتاة السمراء ، التي أصفاهامن الود أجمله، وأكرمه .. وطال سكوته .. ماذا يرد على صـــاحبه ، كل زواج يحتاج إلى مقومات ، وهو لا يملك منها حتى أقلهـا .. ثم من يعطيه زوجة ، وهو رجل مهاجر من اليمن ، وحليف لابن المغيرة ليأمن شر الأشرار في مكة . ثم أن قلبه لا يميل عن سمية

وقد لا يرغب أسيادها في تزويجها .

أمور كثيرة دارت سراعاً في فكر ياسر .. وكأنما أدرك أبو حذيفة ما يجول في ذهن صاحبه ، فحاول قطع حبل التفكير عليه ، والتفت إليه ، والبسمة لا تفارق شفتيه .

ياسر هل ترغب في الزواج ؟

نعم .. ولكن ..

وقبل أن يكمل حديثه قاطعه أبو حذيفة قائلاً :

أترضى بسمية زوجة ..

وبهت الرجل ، ومرت به لحظة ذهول .. أصحيح ما يقول ، أم يريد اختباره ؟ كل شيء كان يتصور ، إلا هذا الإحسان.

وأطرق ياسر برأسه حياءً .

يا أبا حذيفة إنها أمتكم المفضلة ، وهل تستغنون عنها حقاً ؟

ذلك ما قررناه يا ياسر – كرامة لك .. إنك أهل لكل مكرمة ، وستزف لك غداً إن وافقت .

ورمق ياسر صاحبه أبا حذيفة بنظرة كلها الشكر والامتنان ، وهو يكاد يطير من الفرح .

وعاد أبو حذيفة لزوجته يخبرها بما انتهى إليه ياسر ، ويأمرها أن تجهز سمية لزوجها مساء غد ..

وانتشر الخبر في الحي ، وكل من عرف ياسر سر لهذا النبأ

وكل من عاشر سمية من النساء فرحت لها .. وكلهم باركوا لأبي حذيفة صنيعه .

وتزوج الحبيبان ياسر وسمية ، ودارت بهما الأيام ، وهي كأحلى ما تكون ، وكانت هذه الصلة الوثيقة بينهما تغذي إخلاصهما ، ووفائهما لأبي حذيفه وزوجته أصحاب اليد الأولى عليهما .

وشد حياتهما الزوجية مولودهما « عمار » وقدم أبو حذيفة وزوجته إلى دارهما ليباركا لهما مولودهما . واستقبلت سمية ضيوفها ، وهي تحمل بين يديها طفلها ، وتدنيه منهما ، ويستبشرا فيه ، ثم يلتفت أبو حذيفة لسمية ، وعلى جبينه ترتسم علائم نبأ هام يتم لهما الفرحة والمسرة .

يا سمية : إن ياسر إنسان طيب ، ورجل شريف ، وأنت إنسانة طيبة ما عرفنا منك إلا الخير والمحبة .. وكرامة لكما وللمولود كما أنت ووليدك أحرار من الآن ..

وتطبع على يد سيدها قبلة بلهفة وفرح ، ويقع ياسر على حليفه يقبل جبينه ورأسه .. أي وفاء هذا تسديه إلي يا سيدي .. وتعم الفرحة أرجاء هذا البيت .. إنها لحظة ترفرف فيها السعادة عليهم ، بعد أن توجوا بالحرية .

وراح عام ، وجاء عام ، وعمار يشب في ظل أبويه ، وقد وصل إلى عصر الشباب ولم يحمل في جنبيه غرور الشباب ، ولا

بان عليه طيش وزهو .. خلق عال وشجاعة كريمة ، وصفات حببته إلى قلوب الناس .

وتعيش أسرة آل ياسر عيشة راضية كل من حولها يلهج بالثناء عليها .. ياسر ساعد قوي لكل محتاج ، وسمية طيبة مع نساء الحي ، وعمار شاب وطموح يعمر قلبه حب الناس، وتتوفر لديه المروءة بأجمل معانيها ..

وفي ليلة ندية يحدث ياسر زوجته بما يدور في أندية مكة من أحاديث الدعوة المحمدية .

وتلتصق المرأة بزوجها متلهفة للمزيد من التعرف على أخبار هذه الدعوة .. إنه حديث مهم في حسابها ..

محمد بن عبد الله يتيم عبد المطلب يدعو إلى دين جديد ، ويقرأ ياسر من قرآن محمد ما تيسر لها ..

وما في دعوة محمـــد يا ياسر .. زدني إني لفي لهفة لهذا النبأ .

يا سمية دعوة محمد إنسانية تقول : « إن أكرمكم عند الله اتقاكم » ويقول : « إنه لا فرق لأبيض على أســود إلا بالتقوى »

شيء عظيم ورائع يا ياسر هذا الذي تذكره .. زدني .

لقد قرأ لنا هذا اليوم من قرآنه :

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن

له كفواً أحد » .

شيء أروع من كل شيء .. وهل آمنت به يا ياسر ..

وماذا تقولين في ذلك ؟

لا تتأخر أبداً إن محمداً الصادق الأمين ، وأن قلبي ليميل إليه ..

قري عيناً ياسمية .. مرّ عليّ عهد ، وأنا مؤمن برسالته ، أيسعدكِ هذا الأمر ..

كل السعادة ، اذهب إليه ، وأخبره أيقبل إسلام امرأة ؟ فأنا مؤمنة به ، وبدعوته مسلمة .

غداً سأذهب إليه ، وأخبره عنكِ ..

ويصبح الصباح ويستعد ياسر لمغادرة بيته ، ويقبل عليه ولده عمار وكأنه يلقي عن نفسه عبئاً . .

يا أبتاه : أتأخذني معك إلى رسول الله ، أسلم على يده ، فأنا مؤمن برسالته ..

أو سمعت عن هذه الدعوة ما جذبك إليها ؟

نعم يا أبتاه .. منذ زمان وأنا أتصيد أخبارها ، ونفسي تطمح إليها لا شيء أعظم منها .

وشبابك ياولدي ، ومخاطرها ؟ .

أبداً لا يهمني في سبيلها كل أمر يعرض ..

حسناً ستكون معي إلى دار الأرقم في هذا المساء ..

وبقلب فارغ من الصبر تنتظر الأسرة المؤمنة غروب الشمس، وحلول الظلام لتتسلل إلى دار الأرقم .

وفي جنح الليل يتوجه الأب ، وخلفه ولده الذي لم يتخطى عتبة الشباب إلى دار الأرقم ، حيث يجتمع محمد بأصحابه بعيداً عن العيون .

ويقبل ياسر ، وإلى جانبه عمار ، وترف على ثغر النبي ابتسامة هادئة ، ويفتح ذراعيه للشاب الطامح ، ويكلل رأسه بقبلة ملؤها الحنان والإيمان ، ثم يلتفت إلى الأب المؤمن :

يا ياسر قر عيناً بهذا الولد البار ، وبزوجتك المؤمنة الطاهرة ..

أو علمت برغبة سمية يارسول الله ؟

« نعم .. إن اسلامها لعظيم ، وستكون أول شهيدة في سبيل العقيدة وإن لكم جميعاً المقام المحمود » .

« وأنت تقتل شهيداً أيضاً .. وولدك هذا تقتله الفئة الباغية إنكم يا آل ياسر من السباقين للشهادة والمكرمة » .

وكاد يطير ياسر من الفرح .. أهذا المجد كله له ولأهل بيته .. أي مكرمة أعظم من هذه المكرمة ..

وتمتد الأعناق من حول ياسر نصغي لما يقول رسول الله عن آل ياسر ومستقبلهم القاسي ، وهم يقابلونه بكل رحابة صدر .. وكلما تحدث النبي تسامى ياسر في نفسه .. يالروعة الإيمان ..

كلما أوغل الظلام تاقت النفوس إلى صباح مشرق ..

ولم يبق مكتوماً إيمان هذه الأسرة بدعوة الرسول الأعظم، بل انتشر في أرجاء مكة ، وتلاقفته الألسن بين الدهشة والغيظ .

فسمية تصبح سابعة سبعة في الإسلام..

لقد بلغ الأمر بهذه الدعوة الجديدة أن تختطف منا حلفاءنا وعبيدنا واحداً تلو الآخر .. لم يكن الأمر هيناً .. ولماذا لا يستجيبون لمحمد ، وهم يسمعون منه ما يثير مشاعرهم نحوه .. « لا فرق لأبيض على أسود إلا بالتقوى » ..

إن محمداً يمني هؤلاء العبيد لأن يكونوا علينا في يوم ما أسياداً ، ويملكون رقابنا ، ونصبح أمامهم أذلاء .. هيهات واللات والعزى .. لابد أن نضع السيف في رقابهم ، ونذيقهم الموت ، حتى يرتدوا عما هوت إليه نفوسهم ..

ويصرخ الرجل بجلاوزته : يافتيان بني مخزوم آتوني بسمية.. ولم تمض برهة من الوقت حتى كانت المرأة التي بلغت العقد الخامس من عمرها هدتها الأيام، وبدى عليها الضعف والهزال– أمام حلقة من زعماء قريش .

ورمقها أبو سفيان والغيظ يمزق ملامحه ، ثم يصرخ فيها بعنف وجبروت : وأنت يا أمة غرك لكع الرجال ياسر ، فحسن إليك دين محمد وسحره وشعوذته إنكم تحلمون بأن تصبحوا

يوماً أسيادنا .. سوف نحيكم قبل أن ترون هذا اليوم.

وتبسمت المرأة الطاهرة ، وقالت له بكل جرأة وصلابة :

صه ياحقير ، لا ترم رسول السماء ، وأمين الله بالشعوذة والسحر . إنه نبي الرحمة ، الذي هدانا إلى طريق الحق ، وحررنا من عبادة الأصنام ، وأرشدنا إلى الله سبحانه .

وقفز أبو جهل ، وهو يرتعد غضباً ، واختطف سوطاً من يد أحدهم ، وانهال على سمية ضرباً حتى كلت يداه ، وأغمي عليها ، وألقيت في الرمضاء تصهرها الشمس حتى إذا مرت فترة من الزمن أفاقت ، وفتحت عينيها.

وما أن عرف القوم بذلك ، حتى جروها إلى وسط الحلقة من جديد ، والتفت لها أبو سفيان صارخاً : والآن ماذا تقولين ؟ .

ما أعدل عن الحق ..

أتتركين دين محمد وسحره ، وتعودين لآلهتنا .

أبداً .. لن أرتد عن الدين الذي أنار قلبي ؟ وأخرجني من الظلمة إلى عالم كله الرحمة واللطف ..

وينهرها أبو سفيان قائلا : أو بك جرأة على هذا الحديث؟.
وهمّ أن يهجم عليها ، ولكن أبا جهل منعه ، وقال له : رويدك يا أبا سفيان ، سأسحق قلبهـــا .. يا فتيان عليّ بعمار ..

وجاؤا بعمار مكبلا بالحديد ، والدم يغطي وجهه ، وطرح

أمامها وهو بحالة يرثى لها .

وألقت عليه نظرة ملؤها الحنان والاعتزاز ، ولم تصرخ ، ولم تولول ضبطت أعصابها . وأظهرت الجلد أمام أعـــدائها ، ورمقت السماء بطرفها وتمتمت بكلمات إلى خالقها .. وطاش صواب الطغمة حينما رأت هذه البطولة وهذا الصبر من امرأة ترى بعينها ولدها يرسف بالحديد وتنهبه السياط من كل جانب ، فلم يخفق هذا المنظر من صلابتها ، ولم يهد من صمودها .

وندت عن أبي جهل آهة فيها شرر الحقد والغيظ .. لقد هاله صمود سمية وانخذل أمامها .. وصمم على أمر لعله يحطم به صلابتها .. صـــاح بجلاوزته آتوني بياسر . ولم تمض فترة حتى أطل رجل الإيمان ، وهو يجر نفسه جراً . . إن قواه لم تساعده على المشي ، وإن ثقل الحديد أجهده ، ووقف أمامهم وهو يلهج بذكر الله.

وتقف الأسرة المؤمنة ، وضحكات الطغاة تغطي أنينهم ، وألقى كل واحد منهم بنظرة على الآخر ، وطيف ابتسامة ترفرف على الشفاه ..

وقال أحد الزعماء لصاحبه ، وهو يهمس في أذن صاحبه : مالنا وهؤلاء الضعفاء ، إن من بين الذين صبوا لدين محـــمد من لا يستطيع أبو جهل ، ولا أبو سفيان أن يرفع عليه صوتاً .. ولو كان عمر بن هشام ، أو صخر بن حرب جادين في أمرهم

وفيهم القابلية لوقفوا لأولئك .. وتلاشى جد حديث هذين وسط زعيق الجـــلاوزة وقهقهة الأسياد ، عندما انهالت السياط على الأسراء الثلاثة ، تنهش في أجســـادهم دون رحمة وشفقة .

وهكذا كان نصيب هذه العائلة كل صباح ، وكل مساء.. فلم ترف عين لهم تأثراً ، ولا خفق قلب عليهم حناناً .. ولم يخفف من مصابهم ، ويضمد جراحهم إلا عطف الرسول ، وهو يتفقدهم فيمسح عن وجوههم الدماء وسط الظهيرة ويواسيهم بأحزانه ، ثم يودعهم بكلماته الرائعة يجسد فيها الحب والعقيدة والصبر والإيمان .

« اللهم اشدد على آل ياسر بالصبر ، اللهم وخفف عنهم عذاب الطغمة » .

وطال صمود الأسرى ، لم تنهار معنوياتهم أمام التعذيب والإرهاب إن هذه الأساليب الوحشية وإن كانت لا تطاق ، وتحد من التصلب المعنوي ، لكنها وفي كثير من الأحيـــان تبعث الإنسان على التحمل والصبر ..

وهكذا شأن هذه العائلة الصابرة المحتسبة .. وضاق ذرعاً أبو جهل بذلك فلم يلبث أن هجم على سمية ، وهو في حالة أشبه بالجنون ، وهو يلهث من الأعياء ، ويجرها من شعرها ، ويركلها برجليه ، ويصرخ : أتصرين على موقفك مـــن

آلهتنا ؟

ولم تجبه أبداً . وكأنها تأنف من جوابه ، إنما تردد بكل إيمان : إن الله للظالمين بالمرصاد . وموعدنا معكم يوم الحساب .

ويهتز من هذه الكلمات ، ويهجم عليها ويطعنها بحربته في صدرها ، ولم يرفعها عنها إلا وهي في آخر لحظاتها ..

وتنساب الكلمات منها هادئة مرنمة :

يارسول الله ، إليك أشكو هذه الزمرة .. ثم تلفظ أنفاسها على منظر من زوجها وولدها .

وتعلو ضحكة من أبي جهل يهتز لها جسده ، وهو يشهد موت هذه المرأة ، ويخطو نحوها فيطأ رأسها بقدميه .. ويهذر – كأنه أصيب بمس من جنون : استرحنا منها . وهو يهتز ويثرثر .. استرحنا منها استرحنا ، ويلتفت إلى الأسيرين ، ويقول : إن يومكما لقريب ..

ويتهادى إلى أصحابه ، وهم متحلقون في فناء البيت ، ويقف على رؤوسهم يضحك ويضحك ، بحيث لفت الأنظار ، وتبدو عليهم الدهشة والضيق ، ويقول أحدهم للآخر .. ماذا أصاب أبا عكرمة ؟ إن أمره لعجيب جداً ..

ويستغرق في الضحك ويهتز ، ويبدو البرم والضيق على

الجالسين وتتعالى الهمسات فيما بينهم لعل مساً من الجنون أصاب الرجل ، ولكن بطل قريش المشركة يمزق كل ذلك ويقول: إن سمية الضالةقد أرحتكم منها فقد طعنتها بالحربة حتى ماتت.

وخيم الوجوم على القوم .. لم يكن معروفاً قبل اليوم مثل هذا القتل من النساء ، وماذا يقولون ، لو تكلمت العرب عن هذه الفعلة .. ويحس أبو سفيان بما يدور في أذهان الجالسين ، ويخشى أن يرتبك الأمر عليهم ، فيلتفت إلى أبي جهل قائلاً : نعم ما صنعت ياأبا عكرمة .. إن هذا جزاء كل من يخرج على آلهتنا ..

ولكن الوجوم لم يتبدد ، ويتفرق الجالسون ، وصورة سمية تلاحقهم مهما طال بهم الزمن .. صورتها ترسف بالحديد ، وتتلوى تحت سياط الجلاوزة، وحشرجات الموت تنهد من حربة بطل العصابة المجرمة ، وآنة شاردة من فم أول شهيد في سبيل الدعوة الإسلامية ، وهي تقول :

الله أكبر .. والعزة لمحمد ..

أُم أَيـمَن

وعاد الشيخ أبو معاذ لمجلسه ، والتف حوله أصحابه . انه في هذه الليلة منبسط الوجه ، منشرح الصدر ، وقد زاد في انشراحه توهج القمر ، وصحوة الأفق ،ثم التفت إلى جلاسه فقال :

رحم الله أم أيمن بركة بنت ثعلبة ، فقد كانت مخلصة في اسلامها ، متفانية في وفائها للنبي ، محبة لآ له ، صادقة في عقيدتها ، وكان يطلق عليها النبي (ص) إذا نظرها « هذه بقية أهل بيتي » .

لقد قضت هذه الصحابية وقتاً طويلاً في بيت الرسالة ، تقوم بخدمة رسول الله وتهتم بأمره ، وحين أمر الصادق الأمين بأن يصدع بالرسالة ، كانت أم أيمن تعيش أبعاد هذه الدعوة ، فهي تعرف عن محمد أكثر بكثير ما يعرفه الناس عنه ، انه سيد بني هاشم ، وفتى عبد المطلب ، شب وكبر وهي تلازمه فلم تسمع منه إلا الصدق والواقع ، ولم تر منه إلا الايمان والفناء في ذات الله .

وهذه الدعوة التي صدع بها محمد بن عبدالله لا بد أن تكون لخير البشرية ، وسعادة المجتمع وقد آمن بها من خصه الله

الهداية ، وقست عليها قلوب الطغاة من قريش ، وتتحين بأمنيتها الفرص لتصب عليه إذاها ، وإذا وصلت إلى هـــذا الحد من التفكير خفق قلبها واضطربت فهي لا تريد له مكروها ، وقريش غاضبة لمجدها المنهار ، وتساقط أصنامها ، وزراية آلهتها ، ولولا قوة أبي طالب وحمايته للرسول ، لما توقفت قريش من قتل محمد فسعير أبي جهل ، وأبي سفيان وإضرابهما بلغ أوجه ..

كانت أم أيمن إلى النبي (ص) أشبه بالأم ، وحتى بلـــغ سنا واستغنى عن خدماتها وتزوجها عبيد بن زيد الخزرمي ، فولدت منه أيمن ، ثم مات عنها زوجها ، وبعد ذلك تزوجها زيد بن حارثة فولدت له أسامة .

وهزتها أنباء الدعوة وتضحية الصامدين من أصحاب الرسول الأعظم ، وبعثت في أعماقها العزم . . وتدخل على الرسول فاستقبلها – كعادته ـ استقبالاً حاراً ، فكان يقول لها «أمي» ومدت يدها إليه مبايعة ، ونطقت بالشهادتين .. فدعى لها النبي بالخير .

وانصهرت أم أيمن في إطار الدعوة ، وهي تسمع وتعي مثل الدعوة ، وقيمها الرفيعة ، وأخذت تحفظ من القرآن ما تيسر لها . وأصبح لها أمر محمد ودعوته الشغل الشاغل ورغم أنه عليه الصلاة والسلام كان يكتم عن النساء أخبار

الاعتداءات عليه وما يفعله جلاوزة قريش به ، خاصة بعد وفاة أبي طالب ، إلا أن هذه المرأة الطاهرة كانت تتصيد الأخبار ، فهي قد اختصت بخدمة فاطمة الزهراء بنت الرسول ويتيمة خديجه .. وهنا قد بلغ السيل الزبى - كما يقولون - فإن الوضع على سيد بني هاشم قد تفاقم ، وبلغ حداً من الخطورة.. ولابد للرسول أن يفعل شيئاً ..

وقد علمت أن قريشاً قد ترصدت له لتغتاله ، فشغلها هذا الأمر ، واستفسرت عن نية القوم ، فتسرب إليها النبأ .. لقد اجتمع بالأمس عدد غير قليل من الطغمة المسعورة وتداولوا في أمر رسول الله ، وتحدث كل منهم بشيء حتى وصل الحديث إلي أبي جهل ، ولم يعجبه كل ما تحدثوا فيه ، فقال : الرأي أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً شريفاً في قومه ، ونعطى كلاً منهم سيفاً صارماً ، فيعمدوا إلى محمد بغتة ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، ونستريح منه ، وإذا تم ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، ورضوا منا بالدية ، وسلمناها واسترحنا منه . وأعجب الجميع بهذا الرأي وصمموا عليه . وأنهم بانتظار الساعة التي اتفقوا عليها .

كانت أم أيمن تغلي فقد أرهقها هذا الخبر ، وقصدت النبي فلم تراه . إنه في شغل عن كل أحد ، لقد أرسل الله إلى نبيه

أن يترك مكة في هذه الليلة . وصمم على انجاز الأمر ، وسربه إلي علي بن أبي طالب . . وعلي بإيمان عميق يفدي نفسه لابن عمه ، وقـــد قال رسول الله (ص) مرة « ياعلي لا يعرفني إلا الله وأنت » .

وأبو الحسن منذ نعومة أظفاره فتح عينيه على ابن عمه الصادق الأمين ، وتعهده بالتربية ، فبات يلازمه كالظل ، وهو حري أن يكون موضع سره وأمانته . ففي أحضان محمد نمى وترعرع ، واقتبس من خصاله ما توّج بها عمره .. وإذا كان غير عليّ قد سجد في يوم من الأيام لصنم ، ورفع بصره لغير الله ، فعلي لم يسجد إلا لله فقد صلى مع النبي (ص) وهو ابن ست سنوات ، وغمس بصره بنور الله ، فجلى له طريق الإيمان .

وإذا كان أبو طالب قد تحمل في سبيل دعـــوة ابن أخيه الجهد والمشاق ، طيلة الفترة القاسية التي اتسمت بكل ما هو مرهق ومجهد ، فإن الشبل ، وهو فتى آل أبي طالب قـــد شارك أباه في تحمل المسؤولية ، وفدى نفسه له قبل هذه المرة ..

غير أنه في هذه المرة قد تفرد بالحماية ، فأبوه قد وُسد في ملحود قبره ، ولم يكن للرسول مؤتمن عدى هذا الشبل الفذ .. وحياته لا شيء في مقابل سلامة ابن عمه ، وها هي قبائل قريش وطواغيتها قد تألبت عليه ، وأصبح بقائه في مكة خطيراً ، فلابد

له من الهجرة إلى المدينة.

واجتمع النبي بعلي بن أبي طالب ، وأخبره بجلية الأمر ، وأبدى فتى آل أبي طالب استعداده للتضحية ، فحياته فداء لابن عمه ، إذا كان في الأمر سلامته .. ثم بالإضافة إلى هـــذا الفداء ، كانت لعلي مهمة أخرى ، فالنبي موضع اعتماد الناس في مكة وغيرها ، وكان مؤتمناً على ودائعهم ، وإذا سافر الرسول فلابد من إرجاع هذه الودائع إلى أصحابها ، ولم يكن لها غير ابن عمه فتى آل أبي طالب .

ونص النبي على ابن عمه بهاتين المهمتين . وهل هـــو أهل لتنفيذها .

وأطل الليل وانتشر الظلام ، وهدءت الأنفاس ، ونامت العيون ، وعلي في بيت الرسول ، وفي فراشه الخاص ، وعليه بردته الخضراء ، وتسلل النبي إلى خارج مكة يأخذ الليل جملا، والله سبحانه قال : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وتجمع المتآمرون على باب بيت النبي ، وأبو جهل يحدثهم ، ويقول : إن محمداً يزعم إنكم إن بايعتموه على أمره ، كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بُعثتم من بعد موتكم ، فجعلت لكم جنان وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها ..

وحان الوقت وهجموا على البيت فلم يجدوا غير علي بن أبي طالب

وصاح أحدهم أين محمد ؟.. ولم يرد عليه إلا الصدى الساخر.. وتقدرون وتضحك الأقدار . ويثور أبو جهل لقد سلم من يده محمد ، كان بين شدقيه ، وأصبح في مأمن .. وهل يقاتلون علياً إنهم يعرفون قابلية بن أبي طـــالب على الحرب ، ولو قاتلوه لقاتلهم ، فهو البطل وابن البطل .. وتراجعوا عنه ، وقال قائلهم : إننا نبغي ابن عمك ، فأين هو الآن ؟ وبكل هدوء رد عليهم أبو الحسن : إن الله يعلم أين هو الآن .. إنها مكرمة علي بن أبي طالب ونزلت الآية الكريمة في حقه : « ومن الناس من يشري نفسه إبتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد ».

وسارعوا في طلب النبي (ص) ، ولكنه قد توغل في الطريق ،فلم يتمكنوا من الوصول إليه ، إنه نجي منهم ، وباؤوا بالفشل ..

وانعقدت الحلقات في مساء ذلك اليوم ، ويكاد ينحصر حديثها في هذا الموضوع وأبو جهل يتذرع بألوان الاعذار كي يستر بها عاره . فلقد نجا منهم محمد ،وأصبح في حرزمن كيده. لقد وصل الرسول إلى المدينة فاستقبلته الأوس والخزرج ، وأحسنت وفادته ، وأنزلته منزلاً كريما من أنفسهم . وكان هذا الخبر يثير هذه الطغمة ، ويقضي مضجعها . وندت آهة من أبي سفيان .. وصاح بجزع واللات والعزى سوف أصب

العذاب على اتباع محمد صبا ، ان سلم هو من سيوفنا ، فلن يسلم اتباعه من سياطنا وردد صدى آهاته المكان ، وجلل وجوم على الجالسين ...

وتمر الأيام وأصحاب محمد يتسللون من مكة إلى المدينة ، وكلما حاولت قريش منع هذا التسلل فصلت ، فلم يبق منهم في مكة الا المسيج بأسرته ،والمحسن بمشيرته ويجبن عند ذاك سوط أبي جهل ان يمس اكتاف مثل هؤلاء فالعيون له بالمرصاد. أما المستضعفون فهم الضحية في كل حال .

وضاقت أم أيمن ذرعاً بالبقاء في مكة انها تريد أن تلتحق بالنبي (ص) وتستمع إلى قرآنه ، وتعيش في جواره ، ورغم عيون الحاقدين فقد صممت على الهجرة،وليس لها في مكة مكان، ومن سينقلها ؟ ليس لها أحد ، ولداها سافرا قبلها . وصممت على الأمر ، حتى إذا قطعت الطريق مشياً على أقدامها .. وفعلا نفذت ما أرادت فقد هاجرت وحدها إلى المدينة قاطعة الطريق ماشية على أقدامها ، وتعرضت للمخاطر والعطش ، ولكن الله سبحانه كان لها عوناً ، فقد ساعدها على عمل المسيرة حتى وصلت المدينة ، والقت عصى الترحال إلى جوار بيت الرسول ، وكان استقبال النبي لها حاراً لطيفاً ، قال لمن حـــوله ، وهو يرحب بمقدمها « أهلا ببقية أهل بيتي » ..

وضمتها مدينة الرسول ، وشغلتها الأيام الزاخرة بالحوادث

والأخطار .. فالنبي (ص) عند انتقاله من مكة إلى المدينة قد أنهى دور تثبيت الدعوة ، وبدء بوضع النظم المقتضية للحكم الإسلامي ، وكان عليه أن يكون مع المارقين عن خط الدعوة حدياً ، وقد منّ الله عليه بالمنعة والقوة .

وكانت معركة بدر .. وهي أول مجابهة تأخـــذ طابعها الدموي بصورة جماعية في حياة الدعوة الإسلامية ، وانتهت إلى فتح كبير ، تبلورت فيها آبعاد الدعوة وجسدت إرادتهـــا في مقابلة الظلم والطغيان .

ثم كانت معركة أحد ، . وانتهت إلى ما انتهت اليه مـن موقف صلة تجلى فيها موقف الحسم في معركة المصير ، كما تجلت فيها في الجانب الآخر . نفسية الانسان المغمور بالاطماع ..

وهكذاتسلسلت المعارك والحروب ،وتتابعت المواقف الحاسمة ، وكانت في خلالها لا تظهر الصور الرائعة للايمان الصحيح المتمثل بالأبطال الأشاوس المضحين في سبيل العقيدة والمبدء أرواحاً رخيصة .

وفي كل هذه المواقف البطولية الرائعة كانت المرأة المسلمة مشاركة - في حدود ما يسمح لها الإسلام - وخاصة بما يتناسب وطبيعة حياتها ، وكنّ على الأعم الأغلب يستلمن الجانب الذي يبعدهن عن الحرب ، يحملن الماء للمحاربين ،ويسعفن الجرحى . وكانت أم أيمن احدى العاملات في هذا الميدان عندما تدق طبول

الحرب ويشتد القتال ..

غير أن هذا القدر من المشاركة الفعلية إلى جانب النبي كان لا يخفف اندفاع هذه المرأة الصالحة في المضمار العملي، فقد كانت تهتم وتندفع إلى أكثر من ذلك فتبعث بأفلاذ أكبادها إلى ساحة الوغى، يقاتلون بين يدي الرسول لتنال جزاء الشهادة. وهذا آخر ما يتصور من الفداء .. وكانت تقول: لو يسمح الرسول للنساء بالقتال، لكنت أول مقاتلة بين يديه..

وفي السنة الثامنة، وقد فتح الله مكة لرسوله، وخضعت قريش لأمره، فضاقت بعض القبائل الحاقدة ذرعاً بذلك، وقررت أخذ الثأر من محمد وحتى لو كلفها غالياً.

ورفعت راية هذه الفكرة قبيلة هوازن، وثقيف بزعامة مالك بن عوف، وأعلنت أمرها واضحاً، وانضمت اليها قبائل أخرى، ممن وترت من الدعوة، وهدها الحقد لتوسعها وكانت عادة القبائل إذا شمرت للحرب بجد تحشد خلفها النساء والأطفال لتؤكد على تصميمها وعزمها حتى الفناء.

وهكذا كانت هوزان في هذه الحركة، فقد دفعت كل امكانياتها لتحشد على النبي قوة هائلة من ناحية الكم، والكيف. وسئل أحدهم مالك بن عوف قائد جيش هوازن وثقيف: يا مالك، انك قد أصبحت رئيس قومك، وان هذا يوم كائن له

ما بعده من الأيام ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟ قال مالك : سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ، قال السائل . ولِم ذاك ؟ قال مالك : أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم . وهكذا كان الحشد ..

وترامي خبر الخارجين على الرسول اليه ، فحشد أصحابه وتجمعت عنده القبائل المؤيدة له فكانت عدتهم كما حددتها بعض الروايات باثنا عشر الف محارب وزحف الجيش بقيادة الرسول الأعظم ، وظن البعض من أصحاب النبي أن كثرة جيش المسلمين قوة لا تطاق ، وبلغ بهم الزهو ، بحيث أعجبتهم كثرتهم فظنوا انهم لن يغلبوا ..

وسمعت أم أيمن بعزم الرسوم على محاربة هذه القبائل ، وشاهدت المسلمين ، وهم يسرعون إلى الالتحاق .. وهرعت لولديها أيمن وأسامة ، وبكل لهفة نادتهما وولدها وأخبرتهما بالأمر :

يا ولدي أسمعتما بعزم الرسول على مقابلة هوازن وثقيف ؟

نعم يا أماه . وسنخرج .

اذن لماذا تأخرتما عن الالتحاق ؟

كنا نعد العدة وسوف نخرج حالاً .

ورفعت المرأة الصالحة طرفها إلى السماء ، وبقلب خاشع

انطلقت الكلمات من شفتيها تردد :

ألهي ، انصر رسولك على عدوك ، واجعل كلمة المشركين السفلى وكلمة الحق العليا . وتقبل منا أعمالنا ، ولا تحرمنا أجر الشهادة .

وبهذه الكلمات الموجزة ودعت ودعت ولديها ، وهما يتوجهان إلى جيش المسلمين تلبية لنداء الحق .

وقالوا للنبي أن جيش المشركين قد تجمع في حنين ..
ونادى منادي المسلمين إلى حنين يا جنود الله سيروا ، ورفرفت آية الرسول في مقدمة الجيش يحملها علي بن أبي طالب (ع) حتى نزلوا قرب حنين ، ورتب الجيش وخطب فيهم الرسول ، وحثهم على القتال ، وأمرهم أن لا يبدؤا بالحرب ، ولا يقتلوا امرأة ، ولا طفلا .

روى جابر بن عبد الله قائلاً : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة واسع منحدر ، وتحدرنا فيه انحداراً ، وفي غبش الصبح ، والظلام بعد لا يزال يخالط الأفق ، وكان المشركون قد كمنوا في شعاب الوادي ، وأحفائه ، ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا ، وأعدوا ، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد ، وأنشمر الناس راجعين ، لا يلوى أحد على أحد .

وانحاز رسول الله (ص) ذات اليمين ، ثم قال : أين أيها

الناس ؟ ، هلموا إلي ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، فلا شيء ، حملت الأبل بعضها على بعض . فانطلق الناس ، إلا أنه قد بقي مع رسول الله (ص) نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

ومن ثبت من أهل بيته : علي بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث ، وابنه ، والفضل بن العباس ، وربيعة بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأيمن ابن عبيد .

يقول الراوي : ولما انهزم المسلمون ، ورأى من كان مع من جفاة أهل مكة الهزيمة ، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن . فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وان الازلام معه في كنانته . وصرخ جبلة بن الحنبل — الا بطل السحر اليوم . وقال صفوان بن أمية : أسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يملكني رجل من قريش أحب إلى من أن يملكني رجل من هوازن . وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة : اليوم ادرك ثأرى من محمد ، وكان أبوه قتل يوم أحد ، وحاول أن يقتل الرسول فلم يتمكن .

ولاحظ الرسول هذا الانكفاء العجيب في المسلمين ، وما أصابهم من ذعر فالتفت إلى عمه العباس ،وقال له نادى بالناس وأخبرهم عني .. فصاح العباس يا معشر الأنصار ، هذا رسول

الله يدعوكم اليه ، فتعالت الأصوات من كل حدب وصوب : لبيك . لبيك ..

يقول الراوي : فأخذ المسلمون . يذهب الرجل منهم ليثني بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله (ص) حتى إذا اجتمع اليه منهم مئة ، استقبلوا جيش المشركين ، وكانوا صُبرًا عند الحرب ، فاشرف رسول الله على ساحة الوغى ونظر إلى المعركة ، فقال : الآن حمي الوطيس .

وصاح رسول الله بعلي : يا علي دونك الفارس حامل الراية وكان جلداً عند تشابك السيوف مقداماً فهجم عليه أبو الحسن ، وتقابل معه فضربه فهوى إلى الأرض وقتل ابو جرول . فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله . وانتصر المسلمون .

ونزلت الآية الكريمة : «ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم ، فلن تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » .

والمؤمنون الذين عنتهم الآية من هم ؟ ان الذين ثبتوا في ساحة الوغى علي بن أبي طالب والصفوة الطيبة ممن صمدوا في

يدي الرسول ، ومنهم ولدا المرأة الطاهرة أم أيمن .

وعاد رسول الله وأصحابه إلى المدينة بعد انتصارهم ،وخرج الكبار والصغار لاستقباله ..

وكانت أم أيمن من جملة من خرجت لاستقبال جيش المسلمين وقائدهم المظفر ، وشقت طريقها إلى رسول الله ، وما ان لمحها عليه الصلاة والسلام حتى قال لها « بشرى يا أم أيمن ، فقد أبلى ولداك في حنين بلاء حسنا ،وجزاها الله جزاء الصابرين المجاهدين» .

وارتفعت العيون شاخصة تكاد تلتهم المرأة الصالحة وقد قطعت شوطاً كبيراً من حياتها في بيت الرسول ، وهي معتزة فخورة بهذا الوسام الذي توجها به رسول الله .

وسواء صحت الرواية أو لم تصح بأن ابنها أيمن قد استشهد في يوم حنين فانها قد فازت بالشرف العظيم وان ولديها أيمن وأسامة ممن ثبتا في ساعة الشدة بين يدي الرسول في محنة حنين. وغمرتها الفرحة ، ورفعت رأسها إلى السماء شاكرة هذا اللطف، ومسحت دموع الفرح من عينيها وسجدت لله شكراً .

وبعد هذا تختص أم أيمن بخدمة فاطمة الزهراء ، انها قرة عين أبيها وزوجة علي ، وأم الحسنين ،وتصبح لها كما تصبح الأم ، ورغم الأحداث والمصائب التي عانتها فانها سعيدة بهذا الشرف العظيم ..

نسيبة بنت كعب

أم عمَارة الانصارية

قال الشيخ أبو معاذ :

كانت (بدر) وهزيمتها ، ومدى ما ناله المشركين من ذل فيها ، قد اقضت مضاجع قريش ، وخطفت صحوهم ، وسدت عليهم مسارب أفكارهم .

وأخذ الثأر في أعماق أبي سفيان يغلي كالمرجـــل ، ينتظر اللحظة التي تواتيه لينقض على المسلمين ، وكان ينصح اتباعه باظهار الجلد والصبر حتى تسنح الفرصة للقيام بعمل يعيد لهـــم مجدهم المندثر .

خطب مرة في قومه قائلاً : يا معشر قريش ، لا تبكوا على قتلاكم ولا تنح عليهم نائحة ، ولا يندبهم شاعر ، أظهروا الجلد والعزم ، فانكم إذا نحـتم عليهم ، وبكيتموهم بالشعر ، ذهب غيظكم ، وأقعدكم عن أخذ الثأر .. وان بلغ محمداً وأصحابه ذلك شمتوا بكم ، فتكون أعظم المصيبتين عليكم ، ولعلكم تدركون ثأركم في القريب ..

ولم يكن أبو سفيان وحده يهدر كالثور الهائج ، انما كانت زوجته هند بنت عتبه لا تقل عنه لوعة وحقد ، فهي تجول في

بيوت نساء قريش تحرضهن على الثأر ، وتذكرهن بقتلاهن في بدر ، وهي تقول : يا نساء قريش واللات والعزى لو أعلم أن الحزن يذهب عن قلبي بالبكاء لبكيت ، ولكن لا يذهبه إلا أن أرى ثأري بعيني . فراش أبي سفيان على حرام ، والطيب والدهن على حرام ، حتى ادرك الثأر .

بهذه الروح الحانقة كانت قريش تعيش ذل الهزيمه ، طيلة عامين ، وحتى كان يوم تجمعت فيه قريش في مجلس أبي سفيان، وعلى عيونهم يطفو أكثر من شرر ، وعلى وجوههم يغفو شبح الحقد ، ثم صاح أحدهم :

يا أبا سفيان ، وحتى متى نبقى وعار بدر يذيب كرامتنا ، لا ليلنا ليل ولا نهارنا نهار ..

وضج الكل : الثأر .. الثأر .. الحرب .. الحرب .. أن أرواح قتلانا تستصرخ ضمائرنا ،وتستثير هممنا..قم يا أبا سفيان وادعو الناس للخروج .

واعتدل صخر بن حرب في جلسته ، وقد سره هذا الشعور الملتهب ، فقد كان أشد كرهاً من غيره بالنسبة لحالهم ، ولكن ماذا يصنع ، والحرب كلفة ، ولا يستطيع أن ينهض بها وحده .

ورد بخبث : يا قوم ، كفانا عار بدر ، والحرب مجهدة ، وبذل الأرواح أكثر جهداً ..

وقاطعته الأصوات المرتفعة من هنا وهناك :

لا تقل هكذا يا أبا سفيان ، كلنا عـلى استعداد للقتال .. الثأر .. الحرب .. الحرب ..

قال أبو سفيان - وقد ملئت نفسه غبطة ونشوة - أو طابت نفوسكم للثأر ، والحرب .

وارتفعت الأصوات : نعم عـلى استعداد ، تصرف ما شئت .

وعقدت الاجتماعات في (دار الندوة) ، وانتهـوا إلى أن يستنصروا القبائل المجاورة ، والمؤيـدة للاشتراك بالحرب ، واختاروا أن يكون الوفد الممثل لدار الندوة مؤلفاً من : عمرو ابن العاص ، وهبيرة بن وهب ، وعبد الله بن الزبعرى وأبي عزة الجمحي .. وهؤلاء الأربعة تتوفر فيهم القابلية الكافية لتحريض الناس وتجميعهم ضد دعوة محمد (ص) ، لأنهم أشد الناس عداوة للنبي ، وأكثر معارضة لدعوته وكرهاً لمبادئه الإنسانية .

وتهيأت الجموع للزحف ، ومن ورائهم حشود النساء يشجعنهم على تحمل الحرب ، ويعيرن من يحاول الفرار مـن اقتحام غمارهـا .

وكتب العباس بن عبد المطلب إلى النبي بكل ما دار في مجالس قريش واستعدادهم للقتال ، وامكاناتهم ليكون على بينة من أمره .

وجمع النبي أصحابه يتشاور معهم في الأمر ، وطال النقاش وتوسع الحديث ، وتشعب القول ..

بعض ينافق ويحاول منع النبي من مقابلتهم ، ويطلب مهادنتهم وآخر يحثه على الحرب ، وان السيف هو الأمر القاطع بينهم . وثالث يؤكد ان ما يراه الرسول الأعظم هو الصحيح ان حرباً أو سلماً .

وقرر الرسول (ص) أن يعلن رأيه ، ولا يدع للمتخاذلين مجالاً يسرحون فيه ، فيدخل بيته ، ويلبس لامته ، ويخرج معلناً أمره ، مخاطباً قومه :

« ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها ، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .. أنظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، أمضوا على اسم الله ، فلكم النصر ما صبرتم » .

وينتشر الخبر في دور المهاجرين والأنصار ، وتدب في البيوت حركة واسعة رجال يستعدون للخروج ، ونساء يهيئن أمور الحرب ، وصبيان يتراكضون من المسجد إلى البيوت يحملون الأخبار لآبائهم واخوانهم .

وقبل أن يعلن الرسول الأعظم الاذن بالسفر ، يقف على باب المسجد تحيط به الصفوة الطيبة من أهل بيته وصحابته ، فيعرض عليه المسلمون كوكبة ، مشاة وركوب ، فيبارك لهم نبيهم هذا الايمان المتدفق بالعزيمة والاخلاص .

وتطلع العيون إلى موكب مقبل على النبي ، وبعد لحظات يصل انه يضم امرأة يحف بها عدد من الرجال والشباب ، ويتهامس القوم ، إنها « أم عمارة الخزرجية، نسيبة بنت كعب» يحيط بها ولداها : حبيب ، وعبدالله وأخواها عبد الله ، وعبدالرحمن ، وزوجها : زيد بن عاصم ، وعدد آخر من أهل بيتها .. وتقف أمام الرسول (ص) وبكل إيمان وثقة تخاطبه :

يا رسول الله ، أدع لنا بالتوفيق ، والاخلاص لعقيدتنا ، وان نكون تحت رايتك جنوداً صامدين ، ونرافقك في الجنة .

فيرفع الرسول الأعظم يديه إلى السماء ، ويدعو إلى العلي القدير :

« اللهم وفقهم لطاعتك ، واجعلهم جنوداً لدينك ، ورفقائي في جنتك » .

ويمر الموكب متوجاً بأعظم شرف يناله انسان في حياته ، وآلاف العيون تلقي عليه نظرة كلها اجلال وإكبار .

وينتهي المسلمون من استعدادهم ، ويوزع النبي الويتهم ..
لواء المهاجرين مع علي بن أبي طالب ، ومصعب بن عمير .
لواء الاوس : يتناوب عليه كل من الحباب بن المنذر بن الجموح، وسعد بن معاذ .
لواء الخزرج : بيد أسيد بن خضير .
وعلى اسم الله يزحف المسلمون يتقدمهم رسول الله ، عن

يمينه علي بن أبي طالب، وعن شماله حمزة بن عبد المطلب..

وجل ما اعتمد عليه هذا الجيش الزاحف ، ايمان كبير ، وصبر ثابت مقابل جيش كبير يزخر بالعدة والعدد.. « وكم فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

وقرب جبل « أحد » تقابل الجيشان . كل منهما يهيء أمره استعداداً للقتال .. وكان أبو سفيان يجول في وسط جيش المشركين يذكرهم بقتلاهم في « بدر » وانهم ينتظرون منهم الثأر .

وترتفع شمس ذلك اليوم ويحتدم القتال . ويتقدم بنو عبد الدار واحداً تلو الآخر ، وسيوف علي وحمزة ، ومصعب تحصد بهم حتى أتت على آخرهم . وتجندل الأبطال السبعة من عمدة القادة المكيين ، ودب الذعر في صفوف المشركين ، وبان الانكسار عليهم ، وبدت الهزيمة تظهر فيهم .

ويشهد شيخ المشركين صخر بن حرب هذا الموقف المتزعزع ، ويكاد وجهه يتفصد غيظاً وكمداً .

وفي الجانب الآخر من الميدان يصاب عمرو بن العاص بشبه اغماءة ، ان الهلع الذي اصاب الجيش المكي ، والذعر الذى انتشر فيهم ، أخذ على الجميع مسارب الطريق ، حتى بقصد الفرار .

ولاحظ المسلمون هذه الانكفاءة المريعة لدى المشركين ،

فاندفعوا إلى مخلفاتهم سلباً ونهباً ، مما أدى إلى ترك مواقعهم ، واخلاء مراكزهم الاستراتيجية .

وكانت كتيبة محافظة مؤخرة المسلمين تأخذ موقعها على الشعب ، وعندما رأت اندفاع المسلمين على الغنائم وتركهم مواقعهم ، هرعت هي أيضاً - كبقية الجيش طمعاً في الحصول على الغنيمة ناسية أو متناسية وصية الرسول الأعظم لرجال الكتيبة أن يتركوا مواقعهم مهما كانت الظروف ..

لكن أصحاب النفوس الضعيفة طغت عليهم أطماعهم ، ولم يلتفتوا إلى وصية نبيهم ، وما يترتب على تركهم المواقع الاستراتيجية من نتائج وخيمة أدت إلى انكسار الجيش الإسلامي .

فقد كان خالد بن الوليد يقف مع رجاله الأشداء على مقربة من موقع هذه الكتيبة وما ان لمح هذه الفجوة التي حصلت في مؤخرة المسلمين ، وانشغالهم بكسب الغنائم ، وإن شعب الجبل قد خلا من كل حارس - وكان يتربص اللحظة التي ينتقض فيها على المسلمين - فلملم نفسه ، وهجم عليهم من الثغرة التي حصلت يتبعه عكرمة بن أبي جهل - أحد قادة المشركين - وأطبقوا من الخلف عليهم يحصدون فيهم دون رحمة وشفقة، مما أربك المسلمين ، وصاروا يقتلون بعضهم البعض ، ولا يشعرون بما يعملون ..

وفي وسط هـذا الميدان الزاخر بالدم والسيف ، والملتحم بالموت ارتفع صوت يبشر المشركين بأن محمداً قد قتل .. وكان هذا النداء له اثره العميق في إضعاف معنويات المسلمين، وانهيار مقوماتهم ، واثارة الرعب في صفوفهم .

يا لفرحة أبي سفيان ، ويا لسعادة هند ..

ذاك يجول في وسط الميدان ، ويصيح كالمجنون – من ياتيني برأس محمد املأ ركابه ذهباً وفضة .

وتلك ترقص فرحاً وغبطة ، وتركض وراء وحشي ، تحثه على قطع رأس محمد أو علي أو حمزة، وإذا حقق لها هذا الطلب فسوف تلبى له أي رغبة يتمناها عليها .

وضاق المسلمون ذرعاً وتولى الأبطال من أصحاب النبي القتال بكل بسالة يحاولون أن يكشفوا المشركين عن الميدان، ليتمكن المسلمون من جمع فلولهم ، والاستعداد للدفاع .. لكن المشركين لم يتركوا الفرصة تفوت عليهم .. ان الطوق الذي ضربوه على المسلمين كان محكماً للغاية .

ويضطر الرسول لأن يصعد إلى الجبل يحيط به عـــدد من أصحابه يذبون عنه ، وكان الموقف عنيفاً، لم يبق معه إلا رجال لا يتجاوز عددهم العشرين ومعهم امرأة ، وقد شدت ثوبها على خصرها ، وأخذت تحشد ذويها حول النبي (ص) لتقي بهم محمداً من الخطر .

تلك هي « أم عمـارة الأنصارية » وقد اتسمت بالبطولة ، والشجاعة فقـــد قاتلت قتالاً شديداً ، لا تبالي بالموت ، ولا تخشاه .

وكانت مهمة أم عمارة أن تسقي المحاربين ، وتضمد الجراح، ولكن عندما حمى الوطيس جمعت أولادها واخوتها ، وزوجها حول رسول الله لتحمي بهم كيان العقيدة وقائد المسلمين .

ويقع أحد أولادها جريحاً بين يدي الرسول ، فيصيح النبي: « يا أم عمارة عصبي جرح ولدك ، وعودى للقتال » :

وتقبل الأم وعلى قسماتها أكثر من فرحة ، لم تصدق أن ولدها جريح بين يدي رسول الله - وهي كرامة كبيرة - فتضمد جراحه ، ثم تقول له :

انهض يا بني وضارب القوم ، ودافع عن نبيك، فهذا يومك، وله ادخرتك ..

ويظفر على قسمات محمد (ص) الرضا والبشر ، ويخاطبها : « جزاك الله يا أم عمارة خيراً ، ومن يطيق مـا تطيقين به اليوم » .

ولم تنته من ضماد جرح ولدها ، حتى تشد على ضاربه فتقطع ساقه ، ويقع على الأرض ، وتهجم عليه ومعها ولدها فيقتلاه ، والرسرل ينظر إليها ، ويبتسم ويقول :

« الحمد لله الذي أقر عينك من عدوك، وأراك ثارك بعينك» .

وكان كلما حمي الوطيس ، وتضاعف الضغط حول النبي ، فر المقاتلون من بين يديه ، ولم يثبت عنده إلا نفر من أولئك الذين نفـــذت كلمة الله في أعماقهم ، فاحالتهم إلى كتلة ايمان وفداء .

ومن هذه الصفوة أم عمارة ، فقد كانت المرأة الـــتي وعت الدعوة ، وفهمت أبعادها ، وتفانت في سبيلها بكل صلابة .

ولاحظ رسول الله أن أم عمـــارة تحارب بين يديه بدون ترس ، وصادف أن مرّ عليـه رجل ، وهو يحـاول الفرار من الميدان ، فصاح به : ألق ترسك يا رجل لمن يقاتـل .. وفعلا ألقى الرجل ترسه ، فأخذه النبي ، وهو يتبسم ، وأعطـاه لأم عمارة لتدافع به .

وكان خالد بن الوليد يدفع برجاله إلى الجبل ليضيق الخناق على الرسول فهو يعمل جاهـداً على قتله ، ولحه أبو سفيان ، فهرع إليه يسأله : عن جثة محمد أين تكون ؟ فقال خالد : محمد لم يقتل .. متحصن بأعلى الجبـــل ، ومعه نفر من أصحابه وامرأة .

وارتسم الحقد على ملامح أبي سفيان ، وثار كالبركان ، وهو يتوعـد أبن قميئة . انه ادعى بأن محمداً قتل .. واللات والعزى لقد كذب ، وسوف يرى الويل مني .. هيا يا فرسان قريش ، ولنصعـــد الجبل ، وندرك ثارنا من محمد ، ونقطع

الفتنة .. هذا وأتونا على مقربة منا ، فليكن طعمة لسيوفنا .

ويتصايح القوم من هنا وهناك .. هيا إلى الجبل .. دلونا على محمد فلا نجوت إن نجا هذه المرة ..

ويتضاعف الهجوم على الرسول ، ويحاصر من كل جانب ويلتف المخلصون حول النبي ، يحمونه من الخطر ، ويدفعون عنه هجمات القوم ، ويستقبلون السهام عنه بصدورهم .

وكانت أم عمارة تحاول أن تطوق النبي بأهل بيتها ليكونوا سياجاً له ، وخاصة من النبال التي تنهال عليه كالمطر .

وأقبل ابن قميئة مسرعاً ، شاهراً سيفه ، يحاول أن ينقض على رسول الله ويصرخ : دلوني على محمد .. أين محمـــد .. يا لثارات بدر ..

وتعترض طريقه أم عمارة ، فيهوي بسيفه عليها ، فتميل عنه ويصيب عاتقها ، ويحدث بها جرحاً عميقاً ، وتعالجه عامــاً واحداً حتى يبرء .

ولم تهتم نسيبة بما أصابها ، ولا الدماء التي أخذت تنزف من جراحها بغزارة أبداً .. انما كان يهمها ان لا يصل ابن قميئـة إلى النبي ، فيسلم من شره .

ويرقب الرسول موقف المرأة المجاهدة البطلة ، فيدعو أحد أولادها ليضمد جراحها ، ويخاطبهم :

« بارك الله عليكم من أهل بيت مؤمن ـ ثم يلتفت إلى ولدها ويقول : والله لمقام أمك خير من مقام فلان ، وفلان » .

واشتد القتال حول النبي ، فقد جمع أبو سفيان من جانب ، وخالد بن الوليد من جانب آخر كل طاقاتهم لاحتلال المركز الذي يضم محمداً وصحبه ..

واضطر الرسول إلى أن يباشر القتال بنفسه .. والكتائب تترى واحـدة تلو الأخرى ، والجموع تحتشد ، والأفق يضيق بالحرب ، والجبل يكتظ بالزاحفين والمقاتلين .

وينادي النبي علياً : « يا علي أكفني هذه الكتائب المقبـلة بسيفك » ويغوص علي في أعماقهم – وهو راجل يضرب هذا ، ويجندل ذاك حتى يبعدها عن الرسول قليلاً ، وتعود مجموعة أخرى لمرقعها بأشد ما كانت عليه سابقتها ويقف علي منها نفس الموقف ، وهكذا كر وفر ..

ولم تغرب شمس ذلك اليوم على النبي ، وهو على الجبل تحف به هالة من أصحابه الخلص من بينهم أم عمارة وأهل بيتهـا ، حتى خفت حدة الهجوم المسعور من المشركين ، بعد أن يأسوا من الظفر بمحمد ، وباءت محاولاتهم بالفشل وأدرك أبو سفيان ان جيشه قد كلّ من الحرب ، ولا يستطيـع المقاومـة ، فراح يلملم جرحاه ، ويجمع قتلاه ، ويغادروا أرض المعركه ، وقـد هدء بعض حقده بما أصاب المسلمين من دمار.

وعندما اشرف على الجبل ، أخـــذ يصرخ بأعلى صوته :
يا قريش ، انعمت فعال ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أعل هبل ..

وهدأت فورة الحرب ، وعاد كل إلى موقعه ان خاسراً ، أو رابحاً ، والإيام طوال ، والأحقاد لم تخمد جذوتهـــا في النفوس الظالمة .

ويتفقد النبي أخبـار الجرحى من أصحابه ، ويكثر السؤال والاستفسار عن نسيبه بنت كعب . فإن جراحاتها بالغة ، فلقد كانت هي وأهل بيتها سياجاً حامياً عن النبي في ساعة المحن .

ويقرر الرسول عيادتهـا ، ويبلغ الخبر إلى دار أم عمارة ، فتهرع لاستقباله ، مشرقة الوجه ، وبإيمان عظيم ، وقلب مفعم بالوفاء ، وتقول :

يا رسول الله انه لشرف عظيم لنا أن ننال العطف ، والاستفسار منك ، وانها الكرامة والمجد أن نكون من جنودك ، وننال رضاك ، وما أصابنا في هذه الحرب من مكروه فلا شيء مـا دمت سالماً . أدع لنا يا رسول الله فاننا بحاجة إلى رضا الله ،

ويرفع الرسول يديه ، ويرمق السماء بطرفه ، ويقول :

« اللهم اجز أم عمارة ، وأهل بيتها خيراً ، وثبت قلوبهم على الايمان واجعلهم رفقائي في الجنة » .

وتخر المرأة المؤمنة ساجدة لله على هذا التوفيق ، وشاكرة رحمته ، ولو كان الكثير من المسلمين في يوم « أحد » يحملون في أعناقهم عقيدة وإيمان أم عمارة لما أصيبوا بتلك الخسارة الفادحة ..

لكن البطولة ، والصلابة ، والتضحية ، مفاهيم لا يعيشها إلا من كان مؤمناً بها .

رحم الله أم عمارة ، وأهل بيتها ، وجزاهم عن الإسلام خيراً ..

ہند بنت عمرو بن حرام

وعادت جلسة الشيخ أبو معاذ إلى روعتها في ليلتها هـذه وهي تغص بالمستمعين وبلهفة إلى حديثه .

وبدأ الشيخ يتحدث والجميع من حوله قد ارهفوا آذانهم له ، ليسمعوا صوته الذي أتعبه الزمن ، وأرهقتـــه الحوادث ، فضعف ، وبدى ، وكأنه يخرج لمستمعيه من الأعماق .

رحم الله هندا بنت عمرو بن حرام ، فقد كانت ممن أسلمت وبايعت رسول الله (ص) وأخلصت لبيعتها ، وماتت وفية لنبيهـا .

لقد عـاد رجـال المدينة من مكة . بعد أن أعلنوا بيعتهم لرسول الله في العقبة الثانية . وكان ممن شهد العقبة معـاذ بن عمرو بن الجموح وأمه هند بنت عمرو بن حرام، وأخوهاعبدالله وأظهروا الإسلام ، وأقاموا صلاة الجمعة .

وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة،وشريفاً من أشرافهم وقد وصل إلى مسامعه بناء اسلام ولده معـاذ ، وسمعه يوما يحدث أمه هند بذلك وكانت تسر وتبتهج، وتهمس في أذنه ، أنلا يعرف أبوه خبره .

ولم يكن من السهل على هذا الابن المؤمن ، أن يبقى أبوه على الشرك ، ويهتم لصنمه يدهنه ويعتني بـــه .. فاتفق معاذ مع خاله ، وكانت هند أمه تساعدهما على تنفيذ الخطة فقـــد كان أمرهما إذ مـــدّ الليل ستوره ، جاء معاذ ومعه خاله وبعض أصحابه إلى صنم عمرو فيحملونه ويطرحونه في بعض حفر بني سلمة ، وفيها فضلات الناس ، منكساً على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال : ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟ ، وتكتم الزوجة الطيبة الخبر ، فيغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسله وطهره ، وطيبه ، ثم قال : أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزيته .. فإذا أمسى المساء ، ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل ما فعلوه بالأمس .. وكان يشكو عمرو لزوجته أمر صنمه وكانت تسخر منه ، وتلفق من الأعذار ما تبعد الشبهة عن ولدها .

وضاق عمرو بن الجموح ذرعـــاً بأمر صنمه ، ولم يسلم من أحاديث ولده وأقربائه ممن أسلموا فحسن اسلامهم ، وقد كثر حوله الغمز واللمز ، ولم يشرق صباح يوم حتى جاء إليه ، بعد ان غسله وطيبه ، وعلق السيف عليه ، ثم خاطبه :

إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فأن كان فيك خير فامنع نفسك ، فهذا السيف معك ، فلما أمسى ونـــام عمرو ، عدا عليه معاذ ، وأخذ السيف من عنقه ثم أخذ كلباً ميتاً فقرنه به ، وألقاهما في بئر فيه فضلات الناس . وفي الصباح بكر عمرو

على صنمه فلم يجده وبحث عنـــه فوجده ملقياً مع الكلب في البئر . فصاح :

والله لو كنت إلهاً لم تكن   أنت وكلب وسط بئر في قرن

وعاد أدراجه إلى بيته . فاستقبلته زوجته هنـــد ، وهي غارقـــة في الضحك فقال : وأظنك قـــد اشتركت في الأمر يا أم معاذ ؟

وردت عليـه بهدوء : امـا آن لك يا عمرو وأن تذهب إلى محمد ، وتبايعه ..

وصمت الرجل ، واطرق لحظة ، ثم رفع رأسه لها ، وهو يتساءل : أين معاذ ؟ فليذهب بي إلى الصادق الأمين .

وتعلن هند اسلامها ، ويشرق الايمـان ببيت ابن الجموح ، فلم يبق فيه أحد على الشرك ، كلهم مؤمنون .

وتمر الأيام سراعاً ، والاسلام يخرج من دور الدعوة إلى عصر التركيز ، ولا بد له من الحرب ومقارعة الباطل، فكانت غزوة «بدر» ، وكانت هند زوجة عمرو بن الجموح من الأمهات اللواتي دفعن أفلاذ أكبادهن قرابين فداء بين يدى الرسول الأمين (ص).

وعندما أعلن الرسول عزمه على مقابـلة المشركين في غزوة بدر ، كانت هند تدفع أولادها معاذ ، ومعوذ وخلاد مع أبيهم إلى صحبة الرسول ، وخرجت بقلب ثابت إلى مشارف المدينة لتلقي عليهم آخر نظرة. .وعاد المسلمون يرفلون بالنصر والكرامة .

ولم يهدء حقد المشركين على محمـــد ودعوته ، ولم يستقر أبو سفيان على ما مني به من ذل وهوان في معركة « بدر » فلا بد من جولة أخرى ، وعسى أن يكون فيها الثأر ..

وبلغ النبي (ص) استعداد قريش لقتاله ، وزحفهم بعـــدة كبيرة ، وعدد هائل ، ولا بد أن يتخذ للامر الحيطة الكافية.. وأعلن عزمه ، وتصميمه على مقابلة العدو مهما كلفه الأمر .

وكان المسجد مكتضاً بالمسلمين ، والوقت بعد العصر بقليل ، وتعلو الأصوات في آفاقه تهلل وتكبر ، كلما قدم عليه قادم ، يشرح للرسول أمر المشركين وعدتهم ، وطريقهم الذي سلكوه في زحفهم .

وبينما كان المسلمون يتحلقون حول نبيهم يستمعون إلى آخر خبر عن خروج قريش من مكة ، كانت كوكبـــة من الأنصار تقف على باب المسجد .. رجل قـد دق أبواب المشيب يتأوكاء على عصاه ، يحف به أولاده . وأهل بيته ، وخلفهم امرأة من الحشمة والوقار ما يشد اليها العيون .

وصاح أحدهم أنه عمرو بن الجموح ، وانكشف القـــوم ، يوسعون له الطريق فهو سيد من سادات بني سلمة ، وشريفا من اشراف العرب ، وكان يعتمد في مشيته على ولده معاذ ، فـــتى البطولة والايمان وكانت هذه الأسرة ممن تتفانى في خدمة الرسول ، وملازمته بقوة ، وشجاعة وبطولة .

وعمرو بن الجموح بعد أن أسلم ، وأخلص ذلك ، وكان من

حبه للرسول انه إذا تزوج النبي بشر زوجته هند ، فيعملان له وليمة كبيرة فرحة وبهجة بهذا الشرف .

وأطل الموكب الصغير على النبي فاستقبله بكل حرارة وحب ، وأحسن استقبالهم ، وأجلس شيخهم على مقربة منه .. ولمح على وجه عمرو ظلا من حزن ، ودمعة تطوف في ارجاء عينه ، وتكاد الآلهة تخنقه .. ومهما حاول الشيخ أن يطبع على شفتيه ظل ابتسامة ، أو يفتعلها افتعالاً ، كانت الملامح تبدو وكأنه على مشارف ثورة .

وحاول النبي أن يستطلع خبره ، ويبدد السحابة القاتمة التي تلفه فالتفت إلى الصحابي الجليل ، قائلا .

هل بلغك نبأ جديد عن قريش ؟ .

وقد حرك هذا السؤال الشيخ فانسابت دموعه ، وحاول أن يمسحها ، ويخفى أثارها فلم يتمكن . وتلاحقت الآهات تمزق هدوء المجلس الذي سيطر عليه ، وتلملمت الأنفاس حوله ، فالتفت اليه الرسول متسائلا :

ماذا بك يا أبا معاذ ، تكلم هدأ الله روعك ؟

وتمالك الصحابي الجليل نفسه ، والتفت إلى سيده ، وقائده ، ويكاد الأسى يمزقه : يا سيدي ان أولادى منعونني من الخروج معك في هذه الغزوة وقالوا إن الله قد عذرك عن الجهاد ، واني لا أرجو أن اطأ بعرجتي هذه أرض الجنة .

وابتسم الرسول في وجهه ، وأشفق عليه ، أي اخلاص هذا ،

وايمان يسيطر على مشاعر انسان قد بلغ من الكبر مبلغاً، واسقط الله عنه حتى الجهاد ، ولكن لا يرضا لنفسه ذلك ، يريد ان يكون مع النبي وعسى أن ينال الجزاء والأجر . وقال له :

« أما أنت فقد عذرك الله عن مثل هذه المواقف » .

وسكت عمرو على مضض ، ولملم أطرافه على أسى عميق . فبان ذلك على سحنته بكل وضوح وأشفق عليه النبي (ص) ، فقال لأولاده :

« ما عليكم ، لا تمنعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة ..

فزغردت هند فرحاً بهذا الأمر ، وأشرق وجه عمر وغبطة. هذا ما تمناه الزوجان ، وغادر الموكب المسجد ليستعدوا كما يستعد المسلمون لمثل هذه المناسبة .

وماذا يملك المسلمون في ذلك الوقت من عدة الحرب ، النادر منهم من يملك السلاح كالسيف والقوس ، والرمح ، أما الخيل والنوق فقل ان تجدهما .

وكيف كان فالمرأة المؤمنة قد هيأت لزوجها الشيخ كلما تمكنت من تهيئة ، وهي واثقة جداً من أن الله سبحانه سيمن عليها بالأجر الكبير .

وغادر النبي (ص) بجيشه إلى خارج المدينة ، وابن الجموح يحف به أهل بيته وأولاده ، وهند بنت عمرو تودع الموكب إلى مشارف المدينة ، والشيخ الوقور يلهج بالدعاء : اللهم أرزقني

الشهادة ، ولا تردني إلى أهلي خائباً ..

ونشبت الحرب بين الجانبين ، فمادت الأرض ، وتلبد الأفق ، والقتال على أشده ، والناس في كر وفر . وكاد المسلمون أن يمسكوا بأجنحة النصر لولا تعملق الطمع في نفوسهم ، فهلعت قلوبهم له ، وتركوا الحرب بغية السلب والنهب فدارت الدائرة عليهم ، ولم يصمد أمام هجوم المشركين الا النزر القليل ، وكادت سيوف الباطل تأكل الرسول نفسه ، لولا بطولة بعض الصحابة ، ممن التقوا حول النبي ، ودافعوا عنه دفاع المستميت .

وكان من أولئك الأبطال ، عمرو بن الجموح وأولاده عبدالله ابن عمرو بن حرام . وكان عمرو بن الجموح يحمل وإلى جنبه ولده جلاد ، وهو يصرخ إلى الجنة إلى الجنة ..

وحمل العدد القليل ممن التفت الى المكيدة التي أوقعهم فيها المشركون ، وان الخديعة تمت .. انها لحظة حرجة جداً ، وخاصة أن الرسول أصبح في ظرف محرج وخطير . مما اضطر إلى أن يمارس الحرب بنفسه .

وتفاني الأصحاب المخلصون عن نبيهم ، غير هيابين ، ولا خائفين قارعوا الموت بقلب ثابت ملؤه الايمان ، وفي ساعة عز فيها الوفاء .

وكانت الوقفة من أبطال المسلمين رائعة ، بحيث صدت آمال قريش في الوصول إلى الرسول الأعظم ، وقد أصاب المشركين

الذعر ، واضطرتهم إلى التراجع رغم أن الموت كان لهم بالمرصاد، فحصد من حصد ، ونجى من نجى .

وزحف الغروب على ميدان القتال ، وكف المقاتلون عن ممارسة الحرب ، وقد أضعفهم ثقل يوم دامي ، وانكفأ كل من الجانبين إلى قتلاهم ، يجمعون الاشلاء ، ويدفنون الجثث .

ووصلت الأخبار إلى المدينة ، وعرفت المسلمات من المقتول، ومن الباقي ونعى الناعي لهند بنت عمرو بن حرام ان لها في القتلى بطلان : زوجها وأخيها وتهرع مع من هرع إلى ساحة المعركة لم تذرف الدمع، وتلطم الصدر ، انها رجال خرجوا في شرف إلى مصارعهم بقلوب مؤمنة ،. وبحثت عن جثثهم هنا وهناك عثرت عليهم ، فمسحت عن وجهيهما التراب والدم ، وحملتهما على بعير لها ، وقادته إلى المدينة لتدفنهما في مقبرة المسلمين ، وتمر على الرسول الأعظم فيلمح هنداً ، وهي تأخذ بزمام ناقتها وعليها بطلان من المسلمين ، فقال (ص) :

« والذي نفسي بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره» .

ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن يدفن قتلى المسلمين في مكان مصارعهم .. وباشروا بدفنهم ، وهو يودع الواحد تلو الواحد ، حتى وصل إلى عبد الله بن عمرو بن حرام ، وعمرو بن الجموح ، وقد وقفت بين البطلين هند تودع زوجها الوفي، وأخاها المؤمن ، فقال رسول الله (ص» : أدفنوهما في قبر واحد ، لما كان بينهما من الصفاء .

وذكر البعض ان خلاداً أيضاً قتل يوم أحد ، كل هـــذه المصائب ، والآلام أقوى من المصائب ، لم تهزها الأحزان ، ولا تفل شعورها السامي .

واستمرت مع الأحداث الإسلامية تشارك فيها ، وتدفـــع بأولادها للمشاركة بها بقلب غير هياب ، حتى كانت أحداث خيبر ، فقد طلبت من النبي أن يسمح لها بالخروج مع النساء لمساعدة المحاربين ، وكان ما أرادت فقد وافق الرسول الأعظم على طلبها ، ودخلت في مجموعة المساعدات للمسلمين وكان لها موقف مشرف تجلت فيه البطولة والايمان .

وانتهت غزوة خيبر ، وبعده بفترة اسلمت هند بنت عمرو ابن حرام نفسها راضية مرضية إلى خالقها ، فترحم عليها النبي (ص) ، وودعها الأصحاب بكل تقدير واكبار ..

أُميّة بنت قيس الغفارية

وما ان اقبل الشيخ أبو معاذ في أمسيته هذه حتى التف أصحابه حوله وكأنهم أحسوا أن حديثه في هذه الليلة سيكون شيقاً .

وإذا استقر به المقام بدء حديثه :

وأنبلج الليل على تلك الأسرة الغفارية ،وجلست الأم تصغى لحديث ابنتها التي هي في عمر الورود .. « أمية الغفارية »

أماه : أن نفسي تواقة إلى النور الإلهي الذي عم الأفاق ..

أمية ، لا يحسن بك أن تتطرقي لمثل هذه الأمور ، فانك فتاة حدثة السن ، في روعة الصبا ، ومثلك لا يتحدث بهذه الأمور .

لكن أمية – الفتاة التي لم تبلغ الرابعة عشر من عمرها – قد بهرها نور الاسلام فأصبحت وقد غمست نواظرها بذلك الفجر السخي . هذه الفتاة لمت نفسها على مضض من حديث أمها ، وانسابت إلى صاحبتها تبثها ،وتشكو تقاعس أهلها عن الاستجابة القلبية لنداء الايمان ، تقول ، وهي تحدث صديقتها ، وتمزج حديثها بدموعها اللولؤية .

يا سفانة : ماذا أعمل ؟ لا استطيع الصبر .. ان نور محمد يغمرني ، ولا بد أن أصل اليه لابايعه .. لا تهمني أبداً ردة فعل أبي . كل ما يريد أن يعمل فليكن ..

لماذا لم يسلم أبي بهذه الدعوة المحمدية؟ألم يصارع محمد الباطل، ويحطم الكفر ، ويقض مضاجع الطغاة ، هؤلاء الذين لا همّ لهم إلا استعباد الناس وإذلالهم من أجل مصالحهم الشخصية ، وأطماعهم التوسعية ..

وتبادر سفانة إلى كمّ فم أمية ، وتحاول أن تقطع حديثها، فقد اقبل أبوها وبعض أهل بيتها ، وتسكت أمية على مضض ..

من اليوم الذي وصل النبي إلى المدينة ، لم يمر الاستقرار على عيون المسلمين فالغزوة تلو الغزوة، والحرب أثر الحرب، والصراع سجال بين المسلمين ، والمشركين واصداؤها تلف أحياء العرب، وأخبارها تملأ أنديتها . فلم تهدء أحاديث (بدر) حتى بدأت أخبار (أحد) ، ثم تلتها أكثر من هزة .

وفي صباح مشرق ، والنبي في مسجده بعد أحد بزمان ، إذ تقبل فتاة لم تصل بعد إلى الخامسة عشر من سنيها الرائعة — وتدخل المسجد ، وتتخطى الناس ، حتى تمثل بين يدي الرسول الأعظم .

واشرأبت الأعناق نحوها ، ودار الهمس حولها ، ماذا تريد

هذه الفتاة ، وقد لملمت نفسها احتراماً لجلال الموقف ، وغضت طرفها حياءاً ، وعيناها مسمرتان في الأرض ، وقد زادها هذا الموقف حسناً وحشمة .

وبين الارتباك والأقدام ،وقطرات من العرق تنتثر على وجهها الهادي تقول :

يا رسول الله : أنا أمية بنت أبي قيس الغفارية ، وعمري في الرابعة عشر ، وأريد أن اسلم ، فهل يحسن اسلامي .

وبحنان الأبوة يجيبها الرسول : ولماذا لا يحسن منك الاسلام يا بنتي .

إذاً اشهد أن لا إله إلا الله ، وانك رسوله ..

وكبر الجالسون ..

ثم تلف خمارها عليها وهي تقول : يا رسول الله ، لا أرغب ان اعود إلى أهلي ، فهل لي أن أبقى في جوارك .

على الرحب والسعة يا بنتاه .

وتسير عجلة الأيام ، ويعلن رسول الله عن تصميمه لغزو حصون اليهود . لقد أصبح أمرهم لا يطاق ،ولا بد من اجتثاث خطرهم .

وتتجمع المسلمون حول نبيهم يتشاورون في هذا الأمر ، ويعدون العدة ، أن غزوتهم هذه تختلف عن الغزوات الماضية.. انهم سوف يطوقون – في هذه المرة – حصوناً قوية ، وقلاعاً

منيعة ، اتخذها اليهود متارس لهم عندما تجد الحرب .

وإذا كانت الغزوات السابقة في بدر وأحد، والخندق، وغيرها تدور على أرض بسيطة ، ، وجبال عارية ، ففي هـذه الغزوة سيختلف أمرهم ، وستكون مجهدة وحربهم عنيفة، مع القلاع ، والحصون ، واليهود الأشداء .

ليستعد المسلمون كل الاستعداد ، ويختار الرسول من أشداء رجاله ، وأبطال صحابته ، ومن علمتهم الحروب قساوتهـــا ، واعتاد على ضراوتها .

وتهيأ للخروج معه ألف وأربعمائة راجل ، ومائتا فارس ، وكلهم على استعداد للقتال .

وذهب الرقباء – قبل تحرك الجيش الاسلامي – يستقصون أخبار اليهود ، ومدى استعدادهم ، ويرسمون للزاحفين معالم الطريق ، الخالي من كيدهم .

غداً ستعلن ساعة السفر .. والمسجد يعج بالمسلمين ، وعلية الصحابة ، والمدينة تموج بأهلها استعداداً للزحف . والرسول الأعظم اتخذ من مسجده مقراً له يستعرض المحاربين ، ويوزع الألوية ، ويصنف المقاتلين ، ويتفقد امكاناتهم .

وفي وسط هذا الجو الصاخب ، يقبل وفـــد من النساء المسلمات ، وبينهم أمية الغفارية ، وعمرها انذاك لم يتجاوز السابعة عشر ، وقد ملئت عزماً وثباتاً وايماناً . ويقف الوفد

أمام الرسول ، وتقدمت أمية أمامهن تخاطب النبي، وفي صوتها رنة الصدق :

يا رسول الله : لا نريد أن نحرم من هذا الشرف العظيم .. دعنا نخرج معك في وجهتك هذه ، ونقوم بما يجب علينا من القيام به ، فاننا نتمكن من اعانة المسلمين بما استطعنا .. ولا تحصر الأجر والثواب على الرجال .

ويستبشر الرسول بهذا الشعور الاسلامي ، والايمان المتدفق ويأذن لهنّ بالسفر .

وعدن إلى البيوت ، وفي قلوبهن أكثر من فرحة . وليهيئن من أمرهن ما استطعن .

غداً وبعد صلاة العصر يزحف المسلمون إلى دك حصون اليهود إلى النور الذي يشرق في الجزيرة العربية ، فلم يترك سفحاً أو جبلا ، أو أرضا الا ويعمها باذن الله .

لم تغمض لأمية الغفارية عين تلك الليلة ، ان الاسلام غمر قلبها فتركها قطعة ايمان ملتهبة ، وخاصة هي في شموخ الحيوية والفتوة وهي في حقيقتها تمثل المرأة المؤمنة المجاهدة ، الـــتي تبذل نفسها في سبيل عقيدتها .. والبذل في النفس أقصى غاية الجود .

وانتهت صلاة العصر ، وقد ضاقت جنبات المسجد بالمسلمين استعداداً للسفر ، بانتظار اللحظة التي يطل فيها القائد العظيم

ويقبل النبي (ص) يحف به الأبطال من عشيرته وأصحابه المهاجرين والأنصار ، ويسير على بركة الله ، وتزحف الجموع من خلفه . ويروى التكبير من ذلك الحشد النافر .

الله أكبر والعزة للاسلام .

ويودع الرجال المتخلفون لعذر ، والنساء والصبيان موكب الفتح ، وطلائع المجد ، ، وعلى عيونهم شروق أمل ،وفي قلوبهم ترنيمة دعاء بالنصر والظفر .

ويصل الموكب إلى أول الحصون وتبدء المجابهة العنيدة ، اليهود قد استعدوا لها استعداد كاملا ، ولكن صلابة المسلمين وضرواتهم تهز الحرب ، وتلهب غمارها وتنهار أمامها الحصون واحدة تلو الآخرى ، ولم يبق منها إلا « خيبر » .

وأما خيبر أمر النبي أن يقف الجيش، ثم رفع يديه إلى السماء متضرعاً إلى العلي القدير:

« اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين ومـــا أقللن ، ورب الرياح ما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها ، وشر ما فيها أقدموا بسم الله » .

وتقدمت كتيبة من جيش المسلمين لفتح هذا الحصن ، ولكنها فشلت فلم تتمكن من اقتحامه ، لزدياد ضراوة اليهود

وتحمس المسلمون في يومهم الثاني وزحفت كتيبة ثانية ، وقاتلت أشد القتال ، ولكنها عادت ولم تفتح الحصن .

ولم يسهل ذلك على النبي ، مرتان تخفق الكتائب في فتح هذا الحصن .

وجاشت في نفسه ذكريات بدر ، وحنين، وبدت على وجهه علائم التأثر ، ثم التفت إلى المسلمين وقادتهم قائلا :

« لاعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ،يفتح على يديه ليس بفرار » .

وأحدثت هذه الكلمات في نفوس القادة من المسلمين هزة عنيفة .

كانت الكتيبة الأولى بقيادة أبي بكر ، والثانية بقيادة عمر ، فلمن ستكون الثالثة .

وباتت جموع المسلمين ليلتها تلك ، وهي تحسب للغد ألف حساب .

كانت تساؤلات تدور على الشفاه من سيكون هذا البطل الذي سيركز راية المسلمين البيضاء على حصن خيبر . كل يتمنى تلك المكرمة لنفسه ، حتى قال عمر بن الخطاب : ما تمنيت الامارة قط إلا ذلك اليوم ، رجاء أن يكون من يحبه الله ورسوله ..

ولم تكن التساؤلات والتكهنات عن بطل الغد من نصيب

الرجال فحسب ، انما كان للنساء شأن فيه .

فقد كانت أميـة الغفارية أشد النساء شوقاً لمعرفة الأمر ، فالتفتت إلى صاحبتها (أم سنان الأسلمية) تسائلها من تحتملي سيكون فارس الغد ؟..

وقد غامت المرأة المؤمنة بسحابة التفكير ، ثم قالت : لا أدري ان الأبطال كثر ، وكلهم بين يدي الرسول شاهرين السلاح ولو كان علي حاضراً لقلت هو الفارس المعلام . لكنه أرمدوقد تخلف عن الركب ..

كانت أمية الغفارية تستعرض القادة ، فلم تستقر عند أحد منهم . وبقيت تجادل صاحبتها في القادة واحداً بعد الآخر .

وضاقت أم سنان بحديث أمية ، وقد ذهب من الليل أكثره ، فقالت لها : سينكشف الصباح ، ويكشف لنا البطل .

ولكن أميـة لم تشأ أن تخضع للنوم ، فترد على زميلتها : وهل يسري النوم إلى عينيك يا أم سنان : إن الأيام هذه ضارية بحربها ، وقد فتح الله علينا ستة من الحصون ، وبقي السابع ، فهل نعود خائبين من فتح خيبر .

وتململت كعيبة بنت سعيد من كثرة أحاديث أمية ، وخاصة بعد أن ذهب هزيع كبير منه ، وقد أتعبها عمل النهار ، وتريد أن تستريح قليلاً – انها إحدى النجيبات المعروفات بالايمـان العميق ، ومن المشهورات بالطب ، وكانت لها خيمة خاصة

تداوي فيها المرضى والجرحى ، وأسهم لها الرسول يوم خيبر سهم الرجل المجاهد لخدماتها ، وقد تقدمت بهـا السنون ، وأرهقتها بأتعابها — لقد كانت تود أن تنام ، وتخلد للراحة ، وسوف يكشف لها الصباح من سيكون الفارس الذي يقتحم خيبر ؟!..

غير أن أمية الفتـاة المجاهدة ، المملوءة حيوية ، وعزم ، لم تهدأ في تلك الليـلة ، رغم ما أصابها من الارهاق في نهارها ، تعمل جـادة فهي تارة إلى جانب الرسول في خدمته وأخرى تعالج الجرحى ، وثالثاً توفر الماء للمحاربين ليكونوا على استعداد في غدهم .

وانقضى من الليـل شطره الكبير ، ويلمح الرسول (ص) أمية ، وهي في حركة دائبة فيقول لها بكل رفق وحنان .

اذهبي يا أميـة إلى خيمتك ، واستريحي قليـلا ، وفي الغـد ارهاق وتعب .

السمع والطاعة يا سيدي .

وتذهب إلى خيمتها لتستقر فيها بعض الوقت .. ولم يطل الفجر ، حتى هرع المسلمون إلى صلاتهم ، ثم أخذوا يستعدون ليومهم الجديد . وتشرق الشمس ويتجمع المسلمون عند الرسول الأعظم بانتظار الأمر السماوي ، والذي سيكشف أشياءً وأشياءً .

الكل في صمت عميق ، قلوبهم تخفق لسماع تلك الكلمة

الخالدة ، التي ستبقى مشرقة مدى الحياة .. في لهفة لمعرفة اسم البطل الذى يحبه الله ورسوله كرار غير فرار .

ولم يكن هذا شأن الرجال فحسب ، بل النساء كذلك ، فقد نادت كعيبة بنت سعد ، وهي كبيرة النسوة الخارجات إلى غزوة خيبر : يا أمية اذهبي إلى الجمع ، واسمعي الخبر ، من سيكون الفارس المُعلم ..

وتعدو أمية إلى حيث يجتمع المسلمون حول نبيهم وقائدهم ، وتقف على مقربة منهم .

كلهم في انتظار الأمر السماوي ، ترن في أذنهم كلمة النبي « يفتح الله على يديه » .

ويتهادى الصوت الوقور إلى الأسماع ، يمزق السكون ، ويلهب القلوب المؤمنة ، والحاسدة ..

صوت النبي يتعالى : آتوني بعلي بن أبي طالب ..

ويرتفع صوت من جانب الجمع ، وآخر من ثناياه : يا رسول الله أنه أرمد وقد تخلف عن الركب ، ولم يتمكن من مباشرة القتال .

ويتهادى الصوت الوقور ثانية ، ليطبع في العيون دمعة قد تكون دمعة الفرح ، وقد تكون غيرها .. فلعلي كثير من الحساد !!

« لا بأس بذلك ، آتوني به على حالته » .

وأقبل علي ، ويده على كتف أحد أصحابه يتعرف معالم

الطريق ويقف بين يدي ابن عمه ، ويقبله ما بين عينيه ، ويمسح بريقه أجفانه ، ويشفى بإذن الله .. ويقول له النبي :

« خذ الراية وأقصد خيبر ، ولاتعود حتى يفتح الله على يدك هذا الحصن » .

وينتدب له من المسلمين كتيبة لا تهاب الموت ، ويتوجه بها نحو الأعداء . بعد أن هز الراية في وجه النبي ، وقال : سأنعمك عينا هذا اليوم .

وزحفت فرقة النساء خلف الكتيبة . وأمية تزغرد وتهلل وتصيح : يا نساء المهاجرين والأنصار التحقن بالجيش . فاليـوم سجال ، وعلي بطل ، ولا كالأبطال .

وتجول بين الجيش ، فيلتفت اليها أحد المسلمين ، وقد هزه نشاطها وحركتها فقال لها : ماذا دهاك يا أمية ؟ كوني كباقي النسوة ..

والتفت اليه بعين غاضبة ، وهي ترد عليه ، أسكت يارجل؟ والحق بالمحاربين ، وإلا فتخلف كما تخلف غيرك اليوم يوم النصر.

وترفرف الراية البيضاء أمام الجموع الزاحفة ، حتى تصل إلى الحصن ويعلو نداؤه الآفاق .

يا يهود خيبر فليخرج منكم الأبطال ، فننازلهم الحرب .. وخرج مرحب من الحصن ، وهو لا يمـــادل بالبطولة فى اليهود - والتفت إلى علي يقول له : ومن أنت يا رجل .

أنا علي بن أبي طالب .

وتقابلا ، ومرت فترة ، انكشفت العجاجة ، وإذا بمرحب مقتول فكبر المسلمون ، وضاق اليهود ، وتدافعوا نحو الحصن ، وأغلقوا بابه ، فما كان من علي إلا وعالجه ففتحه ، وأخذ يتترس به عن اليهود .

يقول أبو رافع ـ مولى رسول الله : « فلم يزل (الباب) في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ فلقد رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم نجهـــد على أن نقلب ذلك فلم نتمكن » .

انهار الحصن الكبير على يد بطل الاسلام ، وفر اليهود ، من كل جانب ، وعلي يحصد فيهم ، وأصحابه يحفون به ، وأمية وباقي النسوة من خلفه يزغردن بالنصر .

ويصل الخبر إلى النبي (ص) ، ويسجد لله شكراً ، حيث اندكت قلاع اليهود وانهارت على أصحابها ذليلة خائرة .

ووضعت الحرب أوزارها ، ووضعت الغنائم بين يدي النبي يقسمها بين المسلمين، ويعطي حقوق النساء العاملات في الحرب .

ولم يبق أحد إلا أمية الغفارية لم يصلها شيء ، وتعجب المسلمون بادىء الأمر ، وهي التي أبلت بلاءاً حسناً . ودار همس ، وتعالى لغط .

ولكن الرسول الأعظم بدد كلما قيل ، وما جري من همس،

فقد التفت إليها وعلى شفته ابتسامة كريمة . وأشار إليها فتقدمت نحوه تغض طرفها حياء ، واحتراماً وكانت بيده قلادة ثمينة ، احتمل بعض المسلمين أن النبي احتفظ بها لأهله ، لكنه (ص) وبيده الطاهرة زين بها صدر أمية ، وكادت تطير من الفرح . انه لشرف عظيم : أن تنال هذه المكرمة من النبي .

ولتبقى هذه القلادة في رقبتها حية وميتة، لن تفارقها أبداً، هكذا أوصت أن تكون معها في الموت .. ولم يكن ذلك إلا بفضل جهادها وإيمانها ..

صفية بنت بني دينار

وزحف الغروب على المدينة ، ولم ينشر الليل ظلامه ، حتى كان مجلس الشيخ أبو معاذ يعتمر بجلاسه ، ويقبل الشيخ يتوكأ على عصاه ، وقـــد زادته شيخوخته جلالا ، وأضفت عليه ابتسامته الهادئة روعة .

واستقر الرجل بعض الوقت كي يستعيد فيه ذكرياته ، التي شنتها هموم الزمن ، والكل اليـــه منصتون ينتظرون حديثه ، ويتشوقون لاخباره ، ولكنهم لم يستعجلوا المحدث بالحديث ، فهو بحاجة إلى الراحة بعض الوقت .

وانحاب الصوت الرزين إلى اسماع الجالسين ، وقد انشدت اليه الآذان وكأنها تلتهم كلماته بشيء من النهم .. وقال :

إن أنسى فلم أنسى كلمة لأبي سفيان - شيخ الامويين - خرجت من فمه ، ولوعة الحقد تلفها قال : ما رأيت أحداً يحب أحداً ، كما يحب هؤلاء الناس صاحبهم محمد .. لا أدري كيف سحرهم ، وسيطر على عقولهم ؟!!

وهذه العبارة التي خرجت من أبي سفيان ، وقد صعدتها زفراته وآهاته جزافا .. فالرجل عرك الناس ، وأوغل في

معرفتهم ، وهو يرمق مجده الزائف ينهار عليه وعلى أصحابه الذين تمرغت أمجادهم على عتبة الدعوة الخالدة .

ولم يكن على أبي سفيان وزمرتـــه اشق من هؤلاء الذين ينحازون للدعوة ويتفانون لها ، ويخلصون لقائدها .

ولم يكن على أبي سفيان وزمرته أصعب من هذه الموقف البطولية التي يقفها المستضعفون من أصحاب محمد ايماناً بدعوتهم ، واخلاصاً لنبيهم .

ولم يكن على أبي سفيان وزمرته أشد لوعة من ذكرى «بدر واحد » فكلما مر عـــلى أذهانهم صور تلك الغزوتين اهتزت نفوسهم رعباً ، واقضت مضاجعهم هلعاً .

واسترسل أبو معاذ يقول .

ولم يذهب عن خاطري ملامح تلك الليلة التي قضيناها في فناء الكعبة ، وذلك بعد أحد بأعوام .. وكان أبو سفيان قد أظهر الإسلام حفظاً لدمه وصيانة لماله، وكان يبطن له كل الشر ، ولم يفتأ أن يصرح - كلما سنحت له الفرصة - بما يدل على عدم إيمانه بالإسلام ، ومنها يقول مخاطباً أسرته :

فو الذي يحلف به أبو سفيان لا جنة ولا نار .. تلا قفوها يا بني أمية ..

وقد قتله الحقد ، وكان يحدث أصحابه المتحلقين حولـــه ، وقد تقادمت به السنون ، ويقول : لا تذكروني ببدر وأحد ،

وأتصور محمد وأصحابه يطحنون أبطالنا ، ويذلون أمجادنا ، فتمحو هذه الذكرى مني كل شروق لدنياي ، وكل عطف لهذا الدين.. ولو لا خوفي على مجد الأمويين من الأفول لتركت هذه الديار ، وذهبت بعيداً ، كي لا أرى عمود الإسلام يتصاعد فيصبح نوراً لم يبق سهل ، ولا جبل ، إلا وعمه ذلك النور .. مضى الزمان ولم أعرف حتى الآن كيف كان محمد يسحر أصحابه ، ويتركهم كتلة متراصة تواجــــه الموت بقلب ثابت لا يزعزعه الخوف . وتنثال في الحروب غير هيابة ، ولا وجله .

ولم يكن هذا شأن الرجال فحسب ، بل النساء ، والأطفال كذلك ، كانوا يداً واحدة في شد ساعد محمد ، لا يغرهم المال ، ولا يخيفهم السيف والتعذيب قلوبهم مغلوقـــة إلا لمن احكم اقفالها ، وعيونهم لا تلامس الحياة إلا من خلال مسارب ايمانهم .. عجزنا ، وعجزنا ، وباءت امالنا بالفشل ..

وهو مستمر في حديثه اذ تسمرت عيناه في امرأة قد مشى وخط المشيب بمفرقيها ، وهي تدخـــل البيت ، واضطرب ، وكاد يبدو عليه الاضطراب ، وتلعثم وصار يبحث عن الكلمات ، والتفت إلى وضعه أكثر من واحد ، وهمس في أذنه .

ماذا حدث ؟

وماتت الكلمات على شفتيه ، واشار باصبعه إلى الامرأة القادمة . ومن خلال الكلمات المتقطعة ، ظهر قوله : إن هذه

واحدة من تلكم النساء المسحورات بمحمد ، ودعوته .. انها من بني دينار .. صفية ، اسلمت لهذه الدعوة ، وتفانت لمحمد بما لا أستطيع نقله ، ونقل عنها في أحد ما لا يصدقه العقل .

أحد .. أحد .. بدر .. بدر .. ومرت هذه الكلمات على لسان زعيم الأمويين ، وقد ارتج واضطرب لهذه الذكرى ، لم تنسف الأيام هذه الذكرى من مخيلته ، ولم تهدأ الظروف من روعها .. لقد باتت على خاطره أثقل من كابوس . روع أبا سفيان – وهو يجول في أحد ، وقد ضيق الخناق على رسول الله – وشد عليه خالد بن الوليد ، وعدد من أصحابه ليقتلوه فنادى النبي بأعلى صوته :

« من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله » .

فتقدم إليه عمارة بن يزيد بن السكن ومعه خمسة من الأنصار ، فقاتلوا دونه قتالا مريرا ، طاح فيها الرجل تلو الرجل ، حتى كان آخرهم عمارة ، فقاتل ، وأبلى بلاء حسنا حتى أثخن بالجراح ، فأمر النبي أن يدنو منه ، فأخذه ووسده قدمه ، وهو ينزف دما ، وخده على قدم النبي (ص) حتى مات .

وروع أبا سفيان وزمرته ما نقل عن حسيل بن جابر – أبو حذيفة اليماني – وثابت بن وقش ، وقد تقدم بهما العمر ، بحيث منعهما النبي من الخروج معه في تلك الغزوة ، ولما دارت الحرب ، ووصلت اخبارها إلى المدينة ، ولم يكن فيها إلا الشيوخ

من أمثال هذين الصحابيين والنساء والأطفال ، تعملق الإيمان في نفسيهما ، وصعب عليهما أن يتخلفا عن مشاركة نبيهما ، واخوانهم من الصحابه فتملكهما الحزن والألم ثم اتفقا على الخروج ، وقال أحدهما للآخر .

ما تنتظر ؟ فوالله لا بقي الواحد منا من عمره إلا ظمء حمار ، إنما نحن هامة اليوم أو غد أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله (ص) لعل الله يرزقنا شهادة مع رسوله ..

وخرجا ، ولم يعلم بهما أحد ، ودخلا المعركة ، وهي حامية الوطيس ، فقاتل ثابت حتى قتل .. وأما أبو حذيفة ، فاختلفت عليه أسياف المسلمين ، فقتل ، ولم يعرفه أحد ، والتفت حذيفة فعرفه ، وصاح هذا أبي ، وانكشف للمسلمين أمره ، واخبر النبي بذلك فتأسف . فقال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، وحاول رسول الله أن يدفع الدية عنه ، فتصدق حذيفه بديته على المسلمين ، فزاده ذلك عند رسول الله خيراً ومكانة ..

وإذا كان هذا وفاء الكبار فلا يقل عنه وفاء الأولاد ، فقد استعرض صبيان المسلمين ليمنع الذين لا يطيقون الحرب ، فلاحظ أن أحدهم يقف على أطراف أصابعه ويتطاول بنفسه ، فقال له

---

(١) ظمء حمار : مثل ضرب لقرب الأجل . والظمء : مقدار ما يكون بين الشربتين ، واقصر الأظماء ، ظمء الحمار ، لأنه لا يصبر عن الماء .

الرسول (ص): ولماذا تفعل هكذا يا بني.. قال : لأظهر أمامك كبيراً ، فتسمح لي بالخروج مع الجيش أحارب في سبيل الله !!

وسكن الشيخ أبو معاذ قليلا، وكأن أجهده طول الحديث ، أو ما هو أكثر من ذلك ، ثم استرسل في حديثه .

كان هذا كله يودع أبا سفيان ، وينغص على عيشه . فقد بدى هذا الطاغية كأنه السعفة يهتز عندما لمح هذه المرأة المؤمنة تدخل البيت لتجدد بوليها عهداً وقد امتد الإسلام إلى الضحى.. ما شأن هذه المرأة ، لقد نقلوا له موقفها البطولي بعد أحد ، فهاله ما سمع .

قالوا : لصفية ثلاثة تهاووا في أحد . كان لها والد علتـــه السنون فجعدت وجهه، وقوست ظهره، وزوج كان لها من عثار الدنيا واقياً ، وفي مزاهر الحب وردة قرنفل ، وولد قد أشرق في ربيع العمر صحوة صبح ، ورنة عطر .

ودعت هذا الموكب ، وهو يغادر المدينـة إلى معركة مع الباطل ، وما تدري القافلة ان الموت لها بالمرصاد .

وانتهت المعركة ، وهبت النساء إلى خارج المدينة يستقبلن المحاربين وتبدو طلائع العائدين ، ووجوه المستقبلين من نساء وأطفال وشيوخ تتصفح الوجوه ، وهي تشرق تارة ، وتغـــيم أخرى ، والقلوب المتلهفـــة لرؤية الأحبة تخفق وتضطرب ، والعيون الساهره لعودة الأبطال ، تزهر كلما أقبل ركب .

وصفية من بين المستقبلين ، وقد ابطاء عليها اعزاء قلبها ، وهي بلوعة الإنتظار ، وإذا بقادم ينعى اليها والدها ، فتكتم حزنها ، وتقول فما فعل رسول الله ؟ فيجيبها القادم . بخير . . والعين بعيد في الانتظار .

ويمر بها قادم آخر ، وتسأل عن أبطالها ، فينعى لها زوجها ، وتتحمل ثقل المصاب وتقول : ورسول الله . فيقول لها بخير . وتطوي ألمهـــا في أضلاعها ، ثم لم تلبث ان يمر عليها ثالث ، فتسأله عن بقية الأحباب ، فينعى لها ولدها ، وندت عنها آهة قطعت أوصال السامعين ، لكنها سرعان ما كتمت ما ألمّ بها ، وقالت : فما فعل رسول الله ؟ ، فقال لها بخير يا أم نوفل ، وهو بحمد الله .

وهرعت إلى وسط القوم ، تكشف الناس عنها ، وتصيح : أروني رسول الله ؟ فأشاروا اليه ، حتى إذا رأته شقت طريقها اليها ، ووقفت بين يديه بكل ثبات وصبر - وقالوا له يا رسول الله : أم نوفل من بني دينار – والتفت اليها ، فقالت له : الحمد لله على سلامتك ، وكل مصيبة بعدك جلل ، وكلنا فداك .

وعادت إلى بيتها ، تحمل أحزانها ، وكل مصيبة تهون بسلامة نبيها .

وسكت أبو معاذ قليلا يتصور حال أبي سفيان ، وهو يردد مذعوراً : وهل هناك أحب وأوفى من أصحاب محمد لمحمد !!

وهذا ما روع أبا سفيان، وزاده حقداً وحنقاً وغيظاً :
فقد انهار مجده بمرور الأيام ، وهو يشهد انهياره ، ويشمخ مجد
الإسلام بهذه الصفوة الطيبة من النساء والرجال. فجزا الله صفية
أم نوفل جزاء المجاهدين الصابرين .

ولنا بقية حديث :

وإذا وصل بنا محدثنا الشيخ أبو معاذ إلى هنا وقـــد أنهى القسم الثاني من السيرة النبوية الكريمة ، يطوف بنا في أرجائها العامرة ، ويصور لنا شخصياتها الفذة الجديرة بالخلود . وقال :

ولنا بقية حديث عن الجانب الأخير من السيرة نرجو أن نوفق للعودة في المستقبل القريب إنشاء الله .

فإلى اللقاء ...

المصـــادر

١ - كشف الغمه - للأربلي
٢ - تاريخ اليعقوبي - لأحمد بن أبي يعقوب
٣ - ايمان أبي طالب - لفخار بن معد الموسوي - تحقيق بحر العلوم
٤ - السيرة النبوية - لابن هشام
٤ - العقد الفريد - لإبن عبد ربه
٦ - بلاغات النساء - لإبن طيفور
٧ - حلية الأولياء - لأبي نعيم الأصفهاني
٨ - تهذيب التهذيب - لإبن حجر
٩ - الطبقات الكبرى - لإبن سعد
١٠ - الإصابة - لإبن حجر
١١ - أسد الغابة لإبن الأثير الجزري
١٢ - الاستيعاب - لإبن عبد البر
١٣ - شرح نهج البلاغة - لإبن أبي الحديد
١٤ - تاريخ الأمم والملوك - لإبن جرير الطبري
١٥ - المستدرك - للحاكم النيسابوري
١٦ - كنز العمال - للمتقي الهندي

١٧ – الارشاد – للشيخ المفيد
١٨ – مروج الذهب – للمسعودي
١٩ – مقتل الحسين – للخوارزمي
٢٠ – المناقب – لإبن شهراشوب
٢١ – تنقيح المقال – للشيخ المامقاني
٢٢ – أعيان الشيعة – للسيد محسن الأمين العاملي
٢٣ – الغدير – للشيخ الأميني
٢٤ – فضائل الخمسة من الصحاح السته – للفيروز ابادي
٢٥ – اعلام النساء -- لعمر رضا كحاله
٢٦ – ضحايا العقيدة – محمد بحر العلوم
٢٧ – مواقف حاسمة – محمد بحر العلوم

فهرس

هذا الكتاب

تتدافع الحقب، ويتنافس الزمن ، على خلق التاريخ الذي يصنعه الابطال من رجال ونساء ، وتتلاحق المثل تلو المثل لتنير الدروب وتصنع التاريخ .

مجموعـــة فاضلات تأثرت بسيرة الرسول الاعظـــم (ص) وشاركن في بنـــاء الاسلام ونشر كلمة التوحيد . حفـل هذا الكتاب بسيرتهن فجاء في مقدمته ـ نجوم لن تغيب :

عبر السنين الطويلة المجهده ، تزهر في الافق إسماء لن تبلى على امتداد الدنيا ، وكلما زهرت الايام ازدادت روعة ، وكلما غفت الليالي تأججت ثورة .

من هذه الكلمات تعرف مدى ابعـــاد هذا الكتاب وعمق البحث فيه

الناشر